لؤي عبد الإله

لعبة الأقنعة

قصص

الأعمال الكاملة

3

ألف ياء
Alf Yaa

لعبة الأقنعة

منشورات «ألف باء AlfYaa»

المؤلف: لؤي عبد الإله

الكتاب: لعبة الأقنعة (قصص) ـ الأعمال الكاملة 3

صدرت النسخة الرقمية: حزيران/ يونيو 2025

الطبعة الأولى: دار دلمون الجديدة، دمشق ـ سوريا 2008

- **الناشر: "ألف ياء AlfYaa"**
- **الموقع الإلكتروني:** www.alfyaa.net
- جميع حقوق توزيع النسخة الرقمية بكل التنسيقات (PDF، ePub وMobi و/أؤ أي تنسيق رقمي آخر محفوظة لـ**"ألف ياءAlfYaa"**
- جميع الحقوق الفكرية محفوظة للمؤلف
- يعبّر محتوى الكتاب عن آراء مؤلفه.

"ألف ياء AlfYaa" ناشرة للكتاب فقط.

- **تصميم الغلاف والإخراج: طالب الداوود**

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الأعمال الكاملة 3

لؤي عبدالاله

لعبة الأقنعة

قصص

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الفهرست

المُخادِع 7
كذبة بيضاء 19
السيد بْروك وأولاده 31
قبضتان 43
رماد 55
لعبة الأقنعة 67
تاء التأنيث 77
النصف الآخر 93
أرض وسماء 105
ملاذ خاص جدا 117

منشورات «ألف باء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

المُخادِع

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

ينتابني شعور، كلما دار الحديث عن طفولتنا، أنها ليست إلا حكاية نسيت شهرزاد أن ترويها للملك شهريار، فهي مثل قصصها التي تدور عن قصر يحوي أربعين غرفة، وما على البطل إلا أن يستمتع فيها جميعاً عدا واحدة عليه ألا يفتحها أبداً، لكنه وتحت وطأة فضول عارم ينغزه دون توقف يخلف الوعد الذي قطعه، فيفتح باب الغرفة المشؤومة.

ولم تكن الغرف آنذاك سوى أيامنا، التي نحياها في بيتنا، أنا وإخوتي؛ كل يوم له طعم لذيذ مختلف. وكأن أبي كان حريصاً على جعلنا مقتنعين بعمق أننا أسعد عائلة في العالم. كل صباح يحمل لنا مفاجأة جميلة: اليوم نستيقظ على هدايا مغلفة بأوراق حمراء، وغدا بأوراق زرقاء، وبعد غد بخضراء. وفي عطل نهاية الأسبوع، نخرج معه لمشاهدة فيلم أو مسرحية أو زيارة الأصدقاء والأقارب، وخلال العطل المدرسية كنا نرافقه في سفرات سياحية خارج البلد، وهناك نستمتع كثيراً بحدائق والت ديزني والمرابي المائية وساحات التزلج الاصطناعية.

عليّ أن أضيف أن عطاء الوالد لم يقتصر علينا نحن أبناءه بل كان للأم قسط متميز منه: هل يمكن نسيان السيارة التي تبدلها كل أربع سنوات بأخرى أحدث وأجمل؟ الملابس الفاخرة والمجوهرات النفيسة التي ظل مواظباً على شرائها لها بمناسبة وغير مناسبة؟ وفي الليل تظل ضحكاتهما تتسرب إلينا من غرفة نومهما فتزيدنا اطمئنانا أننا عائلة سعيدة شديدة التماسك.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

مع ذلك، ظلت تلك الأقاويل تتسرب إلينا عبر الأقارب من وقت إلى آخر فتثير فينا قدراً من الحيرة، وكلها تدور حول أسباب وفاة أختي البكر "فدوى" قبل عدة سنوات.

يجب القول إنني لم أكن ولِدتُ بعدُ عند وقوع تلك الفاجعة، وإخوتي كانوا أصغر من تذكر أي شيء عنها، وهذا ما سمح للإشاعات التي يتهامس بها الأقارب بالدخول في لغطنا، في أحلامنا وفي أسئلتنا.

كانت إحداها تزعم أن ذراع أمي همدت لا إرادياً فوق أنف "فدوى" أثناء نومهما ليلاً؛ وثانية، تقول إنها أفلتت من يد أبي وهو تحت سطوة سكرٍ شديد، وأخرى تتهم الخادمة بالتقصير... إلا أن رأسي الصغير لم يمسك بأيٍّ منها، وسلَّم فقط بحقيقة وجود الأخت ذات يوم في بيتنا، تدل عليه صورتها تلك وهي في حضن الأم. كنا نحتشد أمامها كلما اشتد الجدل بيننا على الرغم من أنها وُضعت في زاوية من البيت لا يمكن رؤيتها بسهولة. أمام الجدار القائم في القبو المعتم، كنا نقف صامتين، نتطلع إلى صورة الأخت الكبرى بالأسود والأبيض مندهشين، كيف ستكون ملامحها لو أنها بيننا الآن؟ وهل الموت يمنع حقّاً مَن نحبهم من التقدم بالسن مثلنا لكن على الضفة الأخرى؟

لعلي نسيت ذكر منغص آخر، ظلّ ملازماً لنا زمناً طويلاً، وكأني إذ أستحضره تحضرني غرفة شهرزاد الأربعين: بين الأيام التي كانت تمر ناعمة كالحرير علينا، هناك يوم استثنائي واحد يهبط كالصاعقة، وفيه تنقلب أمي الهشّة الناعمة إلى امرأة يقظة و مستوفزة، تتحرّك على غير عادتها بإيقاع متشنّج سريع، ها هي تحضر إلى أسرّتنا في ساعة مبكرة من الصباح،

منشورات «ألف باء AlfYaa»

فتوقظنا باحتراز شديد، لتقودنا كخراف صغيرة إلى المطبخ، ثم تطعمنا على عجل، قبل اقتيادنا إلى القبو الذي نستخدمه مخزناً للحبوب والبقوليات والخضار المجففة ومستودعاً لكل أنواع الخردة الفائضة عن الحاجة. وهناك تقوم بتوزيعنا ما بين أكياس الجوخ الكبيرة أو داخل خزانة عتيقة أو تحت طاولة متهالكة. «ابقوا في أماكنكم، ولا تصدروا أيّ صوت، اليوم سيأتي "الغريب" وإذا وجدكم يرسلكم فوراً إلى أختكم فدوى».

سألتُ أمي ذات مرة: «هل فدوى معه»؟ فارتسمت على وجهها ابتسامة شاحبة.

تحضرني صورتها الآن وهي تصفّ أدوات تناول الطعام على مائدة غرفة الضيوف: أمام كرسيّ الأب كأس وصحنان، وأمام كرسيّ "الغريب" كأس مماثل وصحنان. أذكر أن الأمّ كانت حريصة على وضع الكرسيين متقابلين تماماً، ولا بدّ أنها تتّبع في ذلك تعاليم الأب بدقة شديدة.

كذلك، تنغمر أمي في إعداد الطعام خلال الليلة الأربعين، بينما ينشغل أبي في إخراج أفضل زجاجات الكحول التي يفضلها "الغريب" من علبها الكارتونية، ووضع البصمات الأخيرة على ترتيب المائدة.

عليّ أن أذكر أن لا أحد منا رأى "الغريب" يوماً، ولا أستبعد أن أمي هي الأخرى لم تره، رغم تكرر زياراته المنتظمة لنا، ولعلها اكتفت بمشاهدة قفاه عند خروجه من بيتنا مساءً، فحين كنا نسألها عنه تكتفي بالقول: «هو ضخم جداً». يسألها أحدنا: «هل هو أضخم من بابا»؟ فتهز رأسها بانكسار موافقة.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

هـا هـو الآن فـي البيـت: دمـدمات غامضـة تتسـرب إلينـا، وارتجـاج للسّـقف فـوق رؤوسـنا، فيـدفع قلوبنـا للخفقـان أسـرع فأسرع، يأتينا صليل حـاد نـاجم عن تكسر صـحون وزجاجيات مختلطـاً بقعقعـة كراسـي وطـاولات خشـبية تصـطدم بـبلاط الأرضية البنفسجي، لكن هذا الضجيج لا يلبث أن يختفي ليحل محلـه جـدل صـاخب يـدور بـين أبـي و"الغريـب" فـي غرفـة الضـيوف فيصـلنا بعض منـه، علـى هيئـة وشوشـات قادمـة مـن بحر صاخب بعيد.

كـم مـرةٍ سألنا الأم عمـا يـدفع الأب الطيـب الحنـون لاستقبال ضيفه الفظّ المخرّب بانتظام، لكنها كانت تقدم في كل مرة إجابة واحـدة: بابـا و"الغريـب" مـن عائلـة واحـدة. وحـين نلـح فـي الاستفسار عن نوع القرابة التي تجمعهما، تلتزم صمتاً مطلقاً.

لا أذكر كيف تشكّل القرار في نفسي بكسر أوامر أمي بالبقاء في القبو عند حضور "الغريب". هل هو خوف متنامٍ على الأب من أذاه؟ فضول لمعرفة ملامحه التي ظلت تتقلّب فـي أحلامـي؟ رأيته في أحدها كائناً فضائياً يخرج من صحن طـائر هبط علـى سـطح بيتنـا، بـرأس كـروي كبيـر وجسـم صـغير، وفـي آخـرَ، غوريلا عملاقاً يكاد رأسه يمسُّ سقف الغرفة.

مع ذلك، كانت كل الفوضى تختفي في اليوم اللاحق، وكأن الإعصـار الـذي اجتاحنـا أمـس قـد خلَّـفَ وراءه سـماء صـافية شديدة الزرقـة وهـدوءً شـاملاً. هـا نحـن نشـاهد كلّ شـيء علـى حاله: قطع الأثاث في أماكنها، ولا أثر لأي تخريب في البيت بأكمله. وها هو الأب يحتضن أبناءه واحداً بعد الآخر، ويعدهم بهدايا أجمل ورحلة أمتع حال حلول عطلتهم الدراسية.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

بعد اختفاء الضجيج فوق رؤوسنا، وتوقف هزات السقف في القبو، انسللتُ من وراء كيس الحنطة، كأني نمر يتقدم بحذر شديد صوب فريسته. بدت سلالم الدرج الحجري السّتّ وكأن عددها ألف درجة ، ها أنذا أتجرأ أخيراً على فتح باب الغرفة الأربعين، على الرغم من كل النداءات الخفية التي ظلت تجتاحني للعودة إلى مكاني، وعلى الرغم من تسرب الخوف كالأفيون في شراييني بأن "الغريب" يجلس هناك رابضاً بجانب باب القبو الخشبي المتآكل منتظراً وصولي كي يلتهمني كما التهم "فدوى".

فتحتُ الباب بتأن وبطء مطلقين. بدت لي تلك الثواني وكأنها تستطيل إلى الحد الذي تصبح فيه ساعات ثقيلة لا عدّ لها، ومع كل سحبة كانت نبضات القلب تتسارع أكثر فأكثر، ومعها تتقلب صور "الغريب" في رأسي الصغير بين ملامح الغيلان والعفاريت المخيفة التي ظلت أمي تحكي لأطفالها عنها.

مشيتُ يميناً، على رؤوس أصابعي، في الدهليز المنفتح على رواق صغير. كانت الأصوات البشرية تتضح مع كل خطوة أرميها، وتزداد حدة، ومع اقترابي من باب غرفة الضيوف الواقعة في نهاية الرواق، أصبحت الأصوات صوتين فقط.

ألصِق أذني على مصراع الباب المغلق، فيتراءى لي كأنني أسمع صوتاً واحداً بنبرتين مختلفتين، إحداهما حادة غاضبة والأخرى هادئة ومتزنة:

ـ لا تنكر أنك وراء إقناعي بترك الدراسة الجامعية والتفرغ للتجارة.

ـ بعد وفاة والدك المفاجئة، كان عليك أن تدير أعماله الواسعة.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

ـ لكن حلمي بأن أكون مؤرخاً بارزاً قتلته التجارة.

ـ حياة الإنسان أقصر من تحقيق عُشْر أحلامه، لذلك تجد الكل يأكلهم الندم من الداخل.

ـ أنت دائما تحاول خداعي بكلامك.

ـ أنا لم أنصحك إلا بتحقيق رغبة متأصلة في أعماقك.

ـ إذن لماذا أنا ناقم على اختياراتي السابقة التي دفعتني لها؟

ـ لأنك تغيرتَ؛ الشخص الذي اتخذ القرارات السابقة هو ليس نفسه ابن اليوم.

ـ نحن، حسب رأيك، أسرى للماضي والإرادة الحرة ليست سوى كذبة؟

ـ لم أقل ذلك، نحن كائنات تسير نحو الكمال.

ـ وعندما تبلغه تموت... أنت بالتأكيد تضحك في أعماقك من سذاجتي.

ـ انظر حولك اليوم، كل أقاربك يحسدونك على ما لديك.

ـ لو أني بعت أملاك أبي لتمكنت من التفرغ للدراسة، ولما تزوجت أبداً.

ـ أسوأ ما فعله البشر أنهم ابتكروا "لو". وبها أصبحوا قادرين على إلغاء الحاضر في الوهم، وإحلال ممكنات بديلة عنه من الماضي.

ـ تريد أن تقول إني أحاول إعادة أطفالي إلى ممكنات غير موجودة بعد؟

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ـ في خيالك فقط. لا أحد يستطيع خلخلة الماضي قيد شعرة.

ـ لولا قدوم تلك العجوز التي ادّعت أنها خالة أبي وأقنعتني بالزواج من بنت عمي اليتيمة لكنت عازباً حتى اليوم. ماذا؟ .. أرى على وجهك ابتسامة خبيثة.

ـ كان علي أن أخبرك بالحقيقة قبل سنوات.

ـ تريد أن تقول أنت الذي بعثتها إلي؟

ـ بل العجوز هي أنا، مع الباروكة والمكياج

ـ هل تغيير مسار حياتي مجرد طرفة بالنسبة إليك؟

ـ لا، أبداً... ولكني جعلتك سعيداً. أن تكون مؤرخا يعني أنك تدفن حياتك في الماضي، أنا أردتك أن تعيش حاضرك.

ـ من طلب منك ذلك؟ هل تظن أن هناك سعادة واحدة للجميع.

ـ أنا لم أفعل شيئاً عدا مساعدتك حتى تسمع صوتك الداخلي.

ـ تريد أن تقول إنني مسؤول عن كل قراراتي.

ـ نعم، أنا كنت صداك فقط.

ـ من طلب منك أن تكون صداي. أنا حذرتك أكثر من مرة من زيارتي.

ـ لا أستطيع أن أتركك وحدك.

ـ لماذا؟ أنا ما عدت صغيراً.

ـ وعدتُ المرحوم والدك أن أرعاك دائماً.

ـ عدنا للأكاذيب. لم أرك يوماً معه.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ـ علاقتنا كانت قبل ولادتك ثم .. انقطعت.

ـ قبل أسبوع كان عيد ميلادي الأربعين.

ـ كان عليك أن تدعوني، لنحتفل بنجاحاتك الكبيرة.

ـ كنتَ محظوظاً في عدم الحضور.

ـ لماذا ؟

ـ اشتريتُ "مُسدَّس".. ولو أنك جئت في تلك المناسبة لجربته بك.

حلّ صمت مفاجئ، جعلني أتجمد في مكاني. هل سيتوجه أبي إلى باب الغرفة فيجدني وراءه؟ تراءى لي "الغريب" شيخاً بلحية بيضاء ورأس أصلع ونظارة عدستاها سميكتان؛ كأنه جَدّ بديل لي عن جدَّيَ المتوفيين قبل ولادتي. كم شعرتُ بتعاطف معه، وخوف من أبي. كانت نبرته هادئة حنون، بعكس نبرة الوالد الحانقة المهددة. تسرب إلي، شيئاً فشيئاً، شك عميق بكل ما ظلت أمي تقوله عن "الغريب"، بينما راحت صورة الأب الوديع تتلاشى في ذاكرتي لتحلَّ محلها صورة الجنيّ الذي قرر أخيراً نزع القناع عن وجهه.

ها هما "الغريب" والأب يتبادلان قناعيهما أمام عيني الثالثة، تأتيني أصوات بشرية متنافرة من قلب الغرفة، تتقاطع معها حشرجات وأنفاس حيوانية، وبينهما ارتطامات صاخبة لصحون تتكسر فوق بلاطات الأرضية. أسمع صوتاً مختنقاً يتضرع: « اتركني.. أعدك بالابتعاد عنك تماماً»، فيأتي صوت آخر أشبه بفحيح أفعى: «لا تتركه يفلت منك"، ثم يرتفع صوت أبي: «نعم، أنت قتلتني، وتدّعي أنك تسعدني».

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

انتابني شعور عميق بأن "الغريب" العجوز وقع في قبضة عصابة دموية، لن يهدأ أفرادها قبل انتزاع الحياة من جسده الهزيل. ترسخت فكرة عميقاً في رأسي: أبي هو زعيم هؤلاء الأشرار. أسمع سعالاً خافتاً متقطعاً ناجماً عن اختناق، فكأني أرى يديّ الأب الناعمتين تضغطان، كأنشوطة حبل غليظ، حول رقبة ضيفه، تليها دمدمة ناجمة عن سقوط كتلة ما على سجادة الكاشان، ثم انفجار عاصف اهتز له البيت، ليعقبه سكون فجائي.

دفعتُ الباب لا إرادياً بقوة، فاصطدم بالجدار المجاور، تعثرت خطواتي تحت وطأة ساقيّ المرتعشتين، كأني أخيراً في غرفة شهرزاد الأربعين، حيث لا إنس ولا جنّ فيها. بدا كل شيء فيها عادياً: عتمة تكسّر أحجياتها تلك الشموع الأربع الموشكة على الانطفاء فوق مائدة الطعام، وزرقة الغسق الغامقة القادمة من نافذة صغيرة. خمنتُ أن الجميع، بمن فيهم أبي ، غادروا الغرفة من خلال فجوات شبكتها الحديدية الصغيرة، لكن الأنين القادم من الزاوية الأكثر عتمة في المكان، زعزع تلك القناعة: إنها النحنحنات التي تنبعث عادة من صدر أبي. أتقدم صوبه بتأنّ شديد.

في تلك اللحظة، أضيئت الغرفة بمصابيح ثريّاتها الخمسة. التفتُّ إلى الخلف، فواجهتني الأم المتقدمة بخطوات واثقة عجلى. مررت يدها البضّة على رأسي مُطَمئِنةً: «لا تخف، كل شيء سيكون تمام». كان أبي مضطجعاً على ظهره، عند حافة السجادة، وعلى وجهه الشاحب المتعرق انتشرت بقع سوداء، راحت أمي تمسحها بحافة كمّ ثوبها. «بابا بخير.. انظر».

منشورات «ألف باء AlfYaa»

سحبته ببطء من كتفيه حتى أصبح واقفاً على ساقيه. حضنته بكلتا يديها إلى صدرها ثم جرَّته صوب الأريكة الأقرب.

بعد دقائق بدت دهراً، فتح بابا عينيه، بينما ظلت راحة يدها اليمنى تمسّد شعره الأجعد وخديه الضامرين. «تخلصتُ نهائياً من اللعين . لن ينغّص حياتكم مرة أخرى»، همس الأب بصوت متقطع مرتعش.

قادتني ماما إلى باب الغرفة: «لا تخبر أبداً إخوتك بما شاهدته»، ثم أضافت كمن يضحك في سرّه: «أنا وضعتُ رصاصات مملوءة بالبارود فقط».

بدت لي الأم كأنها بحجم الغرفة، ولا أستبعد أن شكّاً راودني للحظة أن تكون جنّية هربت من إحدى صفحات ألف ليلة وليلة.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

كذبة بيضاء

منشورات «ألف باء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

استرجع الشاعر، وهو يراقب أصدقاءه من أعلى، ذلك السؤال الذي طرحه عليه الصحافي في أول وآخر مقابلة معه: «لماذا تكتب؟» فوجد لسانه ينفلت بصياغة بلاغية غريبة عنه: «لأكسب حبّ أصدقائي.»

لا بدّ أنه كان يعني نفس هؤلاء الذين يستطيع الآن رؤيتهم: أربعة أعمدة موزعة بانتظام حول تلك الهوة المعتمة، دون أن يقدروا على تحديد موقعه. كم كان يحلم بشراء بيت خاص يسكنه برفقتهم، يحكمه شيطان الشعر، حيث تتوارد الخواطر بينهم عبر لحظات الصحو والنوم، وحيث الهاجس المشترك تنفيذ حلمهم: كتابة قصيدة واحدة بخمسة أصوات. بيت يطلوه باللون الأصفر ويضع على واجهته لافتة منقوشة بالنيون: هنا بيت الشعر: قصيدة مفتوحة على الأبدية.

لو استطاع الآن كسر هذا الحاجز البلوري العازل عنهم لتمكن من إخبارهم بالحقيقة كاملة. لكن هل سيجعلهم اعترافه أقلّ حزناً وأقلّ شعوراً بالذنب؟ سيقولون له بتشفٍّ: «كان عليك أن تتجنّب الكذب، وما حدث لك كان بسبب حماقتك. ألا تعرف شيئاً عن الطبيعة البشرية؟ أو لعلك نسيت كلّ نقاشاتنا حول ذلك المفهوم؟

ردد أحدهم ذات يوم ما قاله كاتب غربي: «أشعر بموت جزء مني كلما سمعت بنجاح أحد أصدقائي»، فأثار ردود فعل متعارضة بينهم، إلى حدّ الصراخ.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

منذ وقوع تلك الحادثة، وهو يتابعهم بشغف كبير: كيف جلسوا وكتبوا نعياً عن "الشاعر الواعد" باسم "جمعية الشعراء الأبرار". وتحته خطّوا أسماءهم. ولم يكن عسيراً عليهم إقناع الشرطة بروايتهم: كنّا في البستان، فابتعد عنا قليلاً بعد هبوط الإلهام عليه، ليُكمل آخر مقطع في قصيدته "الناقصة"، لكن الذئب لم يرحمه. فلم يترك لنا من رفيقنا سوى هشيم من العظام، وثياب ممزقة حمراء، ودفتر صغير لم يكن ليفارق جيبه يوماً.

يكتشف الشاعر، وهو يراقب رفاقه من أعلى، أنّ أسماءهم اختفت من ذاكرته، مع ذلك فإنه يستطيع تذكر ما فعله كل منهم معه في ذلك المساء المشؤوم، من دون أن يترك ذرة كراهية أو غضب في نفسه. هل القدرة على الغفران تبدأ هكذا: سقوط الأسماء، إلى الأبد، في جبّ الظلمات؟ لذلك سيعطي أصدقاءه نعوتاً أخرى: الأقرب إليه: رقم1، الأبعد عنه: رقم 2: الواقف إلى يمينه: رقم 3، والذي إلى يساره: رقم 4.

قال رقم 2 حال فتحه الباب: «أهلاً برامبو الشرق. هل كل المشاهير لا يلتزمون بمواعيدهم»؟

«أعتذر عن التأخر. التاكسي تعطلت في الطريق».

«لا تكذب»، أجابه الصديق بنبرة حادة مريبة، ثم التفت إلى الخلف صائحاً بانشراح مفتعل:

« لقد وصل شاعرنا الكبير».

إنه موقن الآن من مصداقيتهم في الاحتفال به بمناسبة فوزه بأهمّ جائزة شعر في إيطاليا. موقن تماماً، (وهو يتطلع

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

إليهم من فوق، أمام القبر المفتوح)، من حزنهم الشديد على فراقه. هل هم نادمون أيضاً؟ ليس متأكّداً، وماذا لو عرفوا الحقيقة؟

خرج الثلاثة الآخرون من حجرة الضيوف: أذرعهم مفتوحة للقائه، تعلو وجوههم ابتسامة مشرقة، وأقدامهم تمضي مسرعة صوبه.

«ألف مبروك"، قال رقم1، «كم أنا فخور بإنجازك". وحينما احتضنه أحسّ الشاعر كأنه يلمس قِدراً ساخناً، فارتدّ رأسه قليلاً.

ها هم يحيطون به خلال تقدمه صوب حجرة الجلوس، بينما تصافح عيناه نثار ضوء الشمس المفروش فوق تراب الفناء الأعزل إلا من دجاجتين بيضاوين تبحثان دون جدوى عن حَبّة شعير مختفية في إحدى الحفر الصغيرة. ومن خلفه تصل نسمة هاربة محملة بعطر أزهار البرتقال.

بدا ذلك البيت الريفي، أكبر وأجمل، وألوانه الكالحة أكثر صخباً. كم اعتادوا الذهاب إليه في العطل والأعياد، فصاحبه الثري لا يأتي إليه إلا عند زيارة بستانه الملاصق له. بالمقابل، يملك ابن أخيه، رقم 2، حق استخدامه كلما كان فارغاً. فهو الذي يشرف على عمل البستان بالنيابة عن عمه العجوز.

كانوا، بعد ارتشافهم آخر قطرة من العرق، ينطلقون تحت جنح الظلام إلى البستان الواسع، ترافقهم كلاب الحارس الثلاثة، ومصباح يدوي. وحين يبلغ القمر مداه، تتشرب أشجار الليمون والبرتقال بنثيث الضوء الفضي، تحت بصر رؤوس النخل المتيقظ، فتدفعهم لترديد أشعارهم أو أشعار من سبقهم

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

عالياً. إنهم هنا قريبون من روح الأرض، متماسون عن بعد، تتداخل أصواتهم بعضها ببعض، تتصاعد إلى أعلى، ابتهالات غامضة لشياطين الشعر كي تفتح أمامهم خزائنها.

أحاطوا به كما يحيط السّوار المعصم، وراح كل منهم يتسابق على خدمته: «هل أعجبك السيجار؟ إنه من كوبا»، « هل تركيز كأسك مناسب؟ العرق لبناني من زحلة»، «لعلك تريد قطعة ثلج اخرى»...ومع كل عرض يأتيه، يتعمق في نفسه أكثر فأكثر شعور بالانفصال عنهم، كأنهم أخرجوه إلى الأبد عن دائرتهم، تاركين إياه سجين وحدته وشهرته.

راودته فكرة الاعتراف بحقيقة الجائزة، وما كاد ينطق بها حتى قاطعه أحدهم: «هذه هديتنا بالمناسبة». أعمال لوركا الكاملة. يتذكر أن رقم 3 قال له بنبرة خطابية: «أتمنى لو تترجم بعضاً من قصائد الشاعر القتيل إلى العربية». ردد متلكئاً: «إسبانيتي ليست بالمستوى المطلوب لإنجاز كهذا». قاطعه رقم 4: «شعريتك ستعوض بالتأكيد، مع مساعدة القواميس».

قال رقم 1: «ما زال لوركا حياً حتى بعد مرور أكثر من نصف قرن على مقتله».

قال رقم 4: «عدم العثور على رفاته جعلته مقاوماً للنسيان مثل الكثير من شعراء عصره».

قال رقم 2: «سمعت أن البحث ما زال متواصلاً عنه. الكل يعرف أين أطلق القتلة النار عليه في غرناطة».

قال رقم 3 بنبرة الواثق: «مع ذلك، فلا أثر له في كل قبور غرناطة الجماعية».

منشورات «ألف باء AlfYaa»

علـق رقـم 1: «بالمقابـل، مـا انفـكّ الإسـبان يصـنعون لـه التماثيـل فـي كـل مكـان، ويطلقـون اسـمه علـى الشـوارع والحدائق».

التفت إليه متفاجئاً: «ما السبب وراء ذلك»؟

قال رقم 4: «لغز الاختفاء أفضل طريق للخلود».

قال رقم 2: «أنا مستعد للتضحية بحياتي من أجل ربع خلود من هذا النوع».

ها هم يوشكون على الانتهاء من مراسم الدفن. يتـأبط رقم 2 أباه منعاً من السقوط وتحتضن أختاه أمـه المتهالكة. يُخـرج رقم 3 فجـأة ورقـة مطويـة مـن جيـب سـترته الـداخلي، ينشـرها بتـأنٍّ ويبـدأ بقراءتهـا، وسـط أصـوات العويـل المتقطـع: إنهـا قصـيدة الفقيد الفائزة بالجائزة الكبرى:

على رؤوس أشجار الغابة،

حلّ الصمت،

والهواء سكن تماماً.

العصافير كفّت عن شدوها؛

لفّها الصمت أخيراً،

فلتصبر قليلاً يا صديقي

أنت لن تلبث أيضا أن تنام فتستريح...

بعد أن ألحّوا عليه بقراءتها، ران صمت غريب في الحجرة المضـاءة بالشـموع ، جعلـه قـادراً علـى سـماع نبـاح الكـلاب البعيد ولغط الجنـادب الغـامض، بالمقابـل كانـت أعينهم مسمّرة

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

عليه، فبدت له وسط العتمة حبات جمر متألقة. انطلق بتلاوة أبياته. حاصره خوف غريب عند بلوغه «أنت لن تلبث أيضاً... »، فتحشرج صوته، لكن ذلك لم يمنع رفاقه من ترديد عبارات الإعجاب: « الله»، «أعد»، «رائع»، «جميل»، لينتشي أكثر فأكثر.

لم تنطل حكاية "الذئب" على الشرطة والمحققين فحسب، بل على الصحافة والتلفزيون والراديو: تحقيقات عن الحادث الفاجع، صور لقميصه الممزق والملطّخ بالدم، جنباً إلى جنب مع صور قديمة له؛ مقابلات مع أصدقائه المنكوبين الذين كانوا معه، ها هي صورهم وقصائد رثائهم له وأحاديثهم تنتشر كالنار في الهشيم. كأنهم مع الصحفيين الآخرين قد اتفقوا على صياغة صورة رومانتيكية للشاعر القتيل: كأنه في موته، حسب تعبير أحد أصدقائه، يقول لرفاقه الشعراء في العالم: هذا جسدي فكلوه قرباناً للقصيدة التي ستنقذ العالم من الرتابة والموت الروحي.

جاء التحذير الأول له، عندما قاطع رقم 1 عبارات المديح التي ما انفكّ الأصدقاء الثلاثة يكيلونها لقصيدته العصماء: «ألا تتفقون معي أننا نعيش عصراً لا يولد الشعراء فيه بل يُصنعون»؟

قال رقم 3: «ماذا تعني بالضبط»؟

قال رقم 1: «لا أعني أكثر من أن الشاعر الموهوب قد انقرض. نحن نشهد عصر الشعراء الذين قرروا أن يصبحوا شعراء. وكل ما عليهم فعله هو تقليد لغة الصحافة بعد تحريرها من نثريتها».

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

احتج رقم 2 بنبرة ساخرة: «هل تريد أن تقول إن شاعرنا صناعة أكثر منه موهبة»؟

«لا، أبداً.. »، قال رقم 1، «كل ما أردت قوله إن كتابة الشعر أصبحت عدوى. هل تتذكرون كيف بدأ شاعرنا مشواره؟».

قال رقم 4: «نعم، ولكن هذه حال الجميع: الشاعر يبدأ بتقليد من سبقه حتى يعثر على صوته الخاص».

جاء صوت رقم 3 إنذاراً ثانياً أقوى: «شاعرنا ما كان ليصبح شاعراً لو أنه لم يصادقنا».

قال رقم 1 ساخراً: «ظل يحفظ قصائدنا كتلميذ نجيب أكثر من عامين، حتى فاجأنا بنبوغه»، ثم وجّه كلامه لرقم 2 لائماً: «أنت الذي توسطت لنشر قصيدته الأولى، على الرغم من.. »، التفتَ إليه، كأنه انتبه فجأة لحضوره: «أنا آسف، ولكن الحقيقة يجب أن تقال».

تدخل رقم 2 بعد تكهرب الجوّ، فظن أنه سيقف إلى صفه، بدافع قواعد الضيافة على أقل تقدير: «أتساءل إن كان لمحكِّمِي المسابقة أي علاقة بالشعر»؟

قال رقم 4: «على الأغلب، هم من محكمي كرة القدم الإيطالية».

انفجر الجميع بالضحك. راودته رغبة قوية بمغادرة البيت، فتذكر انقطاع المواصلات بين العاصمة وهذه الزاوية النائية؛ عليه أن يمشي أكثر من ساعتين على طرق ترابية مظلمة تحدها أسوار طينية، كي يصل إلى طريق السيارات المعبّد ،

منشورات «ألف باء AlfYaa»

تناهت إلى سمعه من بعيد أصداء عواء ذئاب جائعة، دفعت قلبه إلى الخفقان. كان عليه أن يخبرهم آنذاك بحقيقة الجائزة والقصيدة ليوقف التنور عن الفوران؛ بدلاً عن ذلك، تصاعد الغضب في نفسه تحت وطأة العرق وفراغ المعدة من طعام دسم.

كم مضى عليه قبل وقوع المحظور؟ بدا له الوقت لزجاً، بطيئاً : ها هم قريبون منه أكثر مما يلزم. على طرفي الأريكة التي توسطها جلس اثنان منهم، وأمامه اقتعد الآخران الأرض على حصيرة قديمة، تفصلهما عنه طاولة الشاي الواطئة.

اندفع رقم 1 يقرأ القصيدة، مقلداً نبرة صوته، بينما أصابت الآخرين نوبة ضحك عارمة، كأنهم بذلك كانوا يسعون دون إرادة منهم أن يختفي هو وجائزته وقصيدته عن الوجود حال إغماض أعينهم لحظة واحدة.

قال رقم 2: «ألم يكن من الأفضل أن تستخدم كلمة بستان بدلاً من غابة»؟

قال رقم 4: «أين هذه الغابة التي يتجول فيها الشاعر؟ في فنلندا ربما؟».

قال رقم 3: «ما ينقص قصيدتك بحيرة بجع وطواويس...».

انفجر الجميع ثانية بالضحك، فوصلته العدوى. كان ضحكه لأسباب أخرى. أراد آنذاك كشف كامل الحقيقة ، لكن كلّ ما حوله تآمر ضد ذلك: العرق الذي تغلغل عميقاً في دمه فأثقل لسانه وعقله، صوت رقم 1 الساخر، عواء الذئاب البعيد، دخان السجائر ، ضوء المصباح الغازي وظلال أصدقائه على جدران الحجرة.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

بدلاً من ذلك، سمع صوتا غريباً، متحدياً، يخرج من بين شفتيه، فيكهرب جو الغرفة المعتم: «لم أظنّ، أبداً، أنكم ستستقبلونني بهذه الحفاوة».

سأل المضيف محتداً: «ماذا تعني»؟

«لم يخطر يوماً ببالي أنكم... »، أجاب الشاعر مختنقاً بعبرة. كانت عيناه المبللتان لا تظهران من ملامح أصدقائه سوى حدقات متوقدة، مصوبة نحوه. وبدلاً من الاعتراف لهم بأن قصيدته العصماء مسروقة والجائزة كذبة، وما كان يسعى من خلالهما إلا إلى حبهم له واعترافهم به، انفلت صوته ساخراً متحرراً من أي سيطرة:

«بالتأكيد قصيدتي أفضل من تلك القصيدة التي مطلعها: أصابع غربتي تمتد صوب شلال الفناء، أو تلك التي تقول: رغبتي أسخن من مكواة البيت... ».

وكأن كلماته الاخيرة فجرت بركاناً كان ساكناً حتى تلك اللحظة: ها هو يرى الشاعرين المعنيين ينهضان من مكانيهما غاضبَين، قاطعَين عليه روح السخرية التي تقمّصته . صاح أحدهما به: «هذا جزاء عنايتنا بك أيها الأبله»؟ وقبل أن تتاح له فرصة النهوض لمواجهتهما انهالت على رأسه الصفعات، لكن السكر اللذيذ خفف من مذاقها كثيراً، وجعلها برداً وسلاماً. وصله صوت أحدهم: «ماذا سنفعل به»؟ فرد آخر عليه: «لنأخذه إلى البستان».

حال الانتهاء من قراءة القصيدة أمام القبر الطريّ، يطوي رقم 3 الورقة بعناية ويعيدها إلى جيبه. يبلغه صوته خافتاً بفعل ذلك الحاجز البلوري الفاصل بينه وبينهم: «وداعاً شاعرنا

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الجميل.. ستظل حاضراً معنا قديساً يهدينا سواء السبيل".

هـا هـم يغـادرون قبـره الترابـي شـبه الفـارغ، إلا مـن سـعفة خضـراء وباقـة أزهـار وتراتيـل عصـافير متفرقـة، فيختفـون تدريجاً عن عينيه.

هـل هنـاك أحـد يعـرف أن جسـده مـا زال يسـري فـي أجسـاد أصدقائه الأربعة دماً، وأن قداسة الضحية لا تتحقق إلا بعد أكله حياً أولاً؟

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

السيد بْروك وأولاده

منشورات «ألف باء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

(1)

لم أكن أظنّ، عند دفعي الباب الدوار، أني سأدخل مدينة مسحورة لا تمتّ بصلة لما هو قائم خارجها، بل تراءى لي وكأني أدخل في حلم تدور أحداثه في مكان وزمان مجهولين: أمامي "كاونتر" أبنوسيّ، ذو سطح صقيل أجرد إلا من طوق ورود حمراء ذابلة، وبدلاً من اصطفاف زجاجات الخمر فوق رفوف مثبتة على الجدار، كما هو الحال في بارات لندن، نُصبت شاشة بيضاء تصل حتى حافة السقف العالي، وعليها تتحرك ببطء سيارات فارهة سوداء اللون، يرافقها غناء كورال بلغة غامضة وموسيقى جارفة.

حاولتُ الخروج لكن حركة الباب تجمدت، فما كان أمامي إلا التقدم بتأنٍّ في تلك المتاهة الخالية من أي أثاث إلا طاولة مستديرة وضعت وسطها، وتحيطها أربعة كراسي، إلى يميني امتدت على طول الواجهة الزجاجية السميكة ستائر المخمل غامقة الزرقة، ويساراً، كان هناك فراغ شامل، إذا اعتبرنا تلك الشموع الاصطناعية المثبتة على الجدران جزءاً من الإضاءة الباهتة التي تعمق الإحساس بالعزلة عن ذلك العالم الصاخب المجاور له بمشاته وسياراته ومطاعمه وحاناته.

على مهل ينفتح ذلك الباب الوحيد، فيظهر رجل بدين نوعاً ما. بدا لي للحظة، وهو يخطو صوبي، كأنه كائن خلقته مخيلتي تحت وطأة جنون محض، لكن وقع خطواته المنتظمة على

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الأرضية الخشبية، متبوعةً بنبرة صوته الأليفة، أعادت لي صنارة العقل. مدّ لي يده وهو يردد: «أهلاً بك...شكراً على مجيئك في الوقت المحدد».

لا أستبعد الآن أن يكون هناك "بروجكتور" مسلّط على الطاولة الصقيلة التي جمعتنا، مما سمح لي بالتمعُّن في وجهه المتورّم الخالي من الغضون، عدا ثلاثة خطوط أفقية تبرز على جبهته العريضة، كلما تلاشت ضحكته.

«أنت السيد بروك»؟ سألته، سعياً إلى استجماع أفكاري.

«نعم. أنا إدوار جيمس بروك»، قال مبتسماً. «يمكنك أن تناديني "إد"».

أزحتُ عينيّ عن وجهه صوب أعلى الجدار القائم وراءه، للتخفيف من النفور الذي يصيبني عادة حين أجد جسدي شديد القرب من جسد رجل آخر لا تجمعني به أية آصرة. واجهتني لوحة زيتية كبيرة معلقة فوق الباب الداخلي ينيرها مصباح خفي.

«هذه صورتك»؟ سألته، فارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة جعلت عينيه الزرقاوين تختفيان وسط أجفانه المتهدّلة.

«إنها صورة بروك الحقيقي»، قال وهو يدير رقبته بصعوبة صوب الصورة للحظة، «هو جدي الرابع. مؤسس هذه الشركة».

«أنت تشبهه بشكل عجيب».

«هو إذن شخص محظوظ»، قال ضاحكاً، «لقد استطاعت جيناته أن تبقى حية عبر أربعة أجيال، فابني البكر جون يشبهني أيضا ».

منشورات «ألف باء AlfYaa»

تلفتُّ حولي بإمعان هذه المرة مدققاً النظر في البورتريهات المعلقة على الجداريْن المتجاوريْن، استحضرت ذاكرتي بعضاً منهم، لظهور صورهم مراراً في الصحف والمجلات، فهم من الشخصيات البريطانية البارزة التي عاشت خلال القرنيْن الماضييْن، وإذا كان هناك شيء يجمعهم فهو الموت.

وكأن الكلمة الاخيرة التي انفجرت في رأسي، وراحت تتكرر بإيقاع مدوٍّ، انتقلت عدواها إلى رأس مضيفي:

«أي خدمة أستطيع تقديمها لك»؟

«وصلتني رسالة من شركتكم حول التأمين على الحياة... وأعجبتني الامتيازات فيها كثيراً».

«أنا سعيد بما تقوله. أرجو أن تخبرني عما أعجبك في عرضنا».

أخرجتُ الرسالة من حقيبة الكتف الجلدية التي ترافقني دائماً: «أعجبني أن التأمين لديكم لا يتطلب شهادة طبية، وهو مفتوح لمن هم ما بين سنيّ الثلاثين والثمانين. كذلك القسط زهيد جداً: خمسة جنيهات شهرياً، لا شيء».

ها أنذا أراه يُخرج نظارته من جيب سترته السوداء الداخلي، ويفرش الإعلان الذي سلّمته إياه على الطاولة.

«آه، إنها ليست منا، بل من شركة الإعلان المسؤولة عن الترويج لشركتنا، ويبدو أن النسخة التي وصلتك سقطت عنها كلمة هي مفتاح الرسالة بالكامل». أضاف بعد صمت قصير: «إنها كلمة "جنازة».

«تريد أن تقول لي إنكم تعرضون التأمين على الموت لا الحياة»؟

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

«ليس تماما أيها السيد، فالموت هو جزء من الرزمة التي يتسلمها كل حيّ سواء كان إنساناً أو طيراً أو حيواناً. إنها باختصار تأمين على الجنازة».

لا بدّ أنه قرأ امتعاضي وهذا ما لم يكن متوقعاً لو كان الشخص من أبناء جلدته. بدأ صفير خافت يتناهى إلى سمعي، منبعثاً من صدره مع كل زفير يطلقه.

سحبتُ الورقة من بين يديه وأدرتها صوب عيني: «ماذا تقصدون بهذه العبارة: اِتركْ مبلغاً من المال لمن تحبهم. هل تدفعون شيئاً لأهل المتوفى».

«لا ! ولكن أن لا يكلف الراحل من يحبهم نفقات جنازته هو نوع من الادّخار لهم، أليس كذلك؟».

قلت ساخراً: «وماذا عن النقطة الثانية: "راحة البال من أنَّ.. جنازتك مغطاة مالياً"»؟ أضفتُ متداركاً خطئي: «أنا أعتذر لأني لم أقرأ هذه الكلمة المفقودة في الإعلان.. مع ذلك كيف تتحقق راحة البال للمتوفى؟».

«راحة البال قبل الوفاة طبعاً. أن يكون المرء مطمئناً من أنه لن يكون مديناً لأحد... ».

«أعتذر إذا كان تصرفي فظاً. أنت تعرف أننا نختلف في الأسلوب لكن الداخل... ».

«لا تقلق».

وحين رآني على وشك النهوض للمغادرة. بادر مبتسماً:

«إذا أحببت أن تبقى قليلاً، لتناول الشاي فمرحباً بك».

منشورات «ألف باء AlfYaa»

(2)

شرح لي السيد بْروك ما ظل يتردد في فضاء القاعة من موسيقى وتراتيل تمس شغاف القلب، لكأنها تتنقل ما بين الألم والرجاء والدعاء: «إنه قداس للموتى ألّفه موتسارت ولم يكمله»، قال المضيف، وأنا أرتشف جرعة من الشاي الممزوج بالحليب فتخفف من حلاوة قطعة البسكويت بالشوكولا، التي ازدرتها للتو فوق لساني.

«بين زبائننا، هذا القداس هو الأكثر شعبية، يليه "أفا ماريا" لشوبرت، ثم قداس فيردي».

«هل هناك من يفضل الموسيقى العصرية بين زبائنك»؟

«نعم، هناك حالات قليلة، وهؤلاء ربما من الملحدين. فكيف تفسر تفضيل البعض لأغنية فرانك سيناترا المتباهية: "عملتها بطريقتي الخاصة" على قداس موتسارت المملوء تضرعاً للرب بالراحة الأبدية».

أردتُ تلطيف الجو بالتعبير عن إعجابي بالفكرة: «لا بد أن هناك زبائن كثيرين اشتروا بوليصة التأمين... ». وكدت أنفجر بضحكة شيطانية مدوية، لولا ارتفاع صوت بْروك بحماسة غير متوقعة: «نعم، نحن أول من طرح الفكرة على السوق قبل تدخل الوسطاء والمضاربين والبنوك الكبيرة. أكثر زبائننا هم من الكهول والمتقدمين في السن، أما الشباب فما زالوا يسخرون من الفكرة. أنت تعرف أن الإنسان يكون طائشاً في هذه السن، ولا يعرف أن العمر محكوم بمتتالية هندسية: كلّما تقدم به العمر تسارعت الأيام».

منشورات «ألف باء AlfYaa»

وكأن صمتي كان موافقة وتشجيعاً له كي يفتح قلبه: «الكثير من الناس يتجنبوننا، وكأننا نحن صانعو الموت. والحقيقة هي أننا نشبه الأطباء. هم يعملون للتخفيف عن آلام الأحياء وإطالة أعمارهم ونحن نعمل لتخليدهم بين أحبائهم من خلال جعل المناسبة راسخة في ذاكرتهم طوال حياتهم لما فيها من أبهة ووقار وتبجيل. كذلك فنحن نُرضي زبائننا بتنفيذ وصيتهم بدقة. بعضهم يحدد حتى أسماء المشيعين وماذا يجب أن يرتدوا، وآخرون يطلبون خدماتنا بعد رحيلهم مقابل مبلغ إضافي صغير. فأنت تعرف أن أحباءهم ستجرهم مشاغل الحياة اليومية بعيداً عن الموتى، لذلك فنحن ننفذ ما يريدونه من غسل منتظم لأضرحتهم، والعناية بالزهور التي تحيطها...نحن بقينا نخدم المجتمع بصمت جيلاً بعد جيل لأن مؤسس أسرتنا كان يؤمن إيماناً عميقاً بأن الموتى هم القوة وراء استمرار الحب في قلوب البشر: هل تستطيع أن تتذكر شخصاً متوفى من دون أن تتعاطف معه لأنه يذكّرك بأنه ما عاد إلا ذكرى بالنسبة إليك... حضوره في أحلامك هو لتنشيط ذاكرتك وحفظها من العطب... نحن لا نفرق بين زبائننا سواءً كانوا أحياء أم أمواتاً.. أستطيع أن أريك أفلام الفيديو لبعض الجنازات التي تعهدنا بها... وقد تغير رأيك».

(3)

«هل كل هؤلاء... »؟

وكأن "إد"، كما بدأتُ أناديه بعد أن جمعتنا وجبة سمك القدّ والبطاطس المقليين وزجاجتي البوردو، أصبح أكثر قدرة على إدراك ما أسعى إلى قوله بجملي الناقصة قبل إتمامها، حينما

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

شاهد عينيّ تتقلبان بين صور المشاهير.

«بعض منهم.. الأغلبية "مروا" على يدي والدي وجدّي. الإنجليز لا يهتمون بعظمائهم الموتى، إنهم يخجلون من التعبير عن مشاعرهم سلباً أو إيجاباً، فالتعبير الحقيقي عن فرحهم أو حزنهم يرونه مبالغة ونوعاً من خفة العقل. أهم شيء بالنسبة إليهم في الأزمات هو القدرة على ضبط النفس بزمّ شفاههم. هل زرت يوما مقبرة "هايد بارك"؟».

«نعم، مرتين».

«هل شاهدتَ قبر كارل ماركس»؟

«نعم أعجبني التمثال».

«هه.. على بعد عشرين قدماً عنه دُفن أول صاحب مطعم صيني في حي سوهو».

«وماذا يهم؟ الموتى هم في نهاية المطاف موتى».

«كيف لا يهم..؟ صحيح أن ماركس ألماني وأنا أكره الألمان لأنهم قتلوا أخي خلال الحرب العالمية الثانية، لكن أفكاره ما زالت مؤثرة في تكوين وعي الكثير من الناس. بالطبع أنا لست واحداً منهم. ما الذي بقي من صاحب المطعم؟ أشك حتى في بقاء مطعمه على قيد الحياة».

«وماذا تقترح»؟

«لو أن ماركس توفي في فرنسا، لكان قبره الآن محاطاً بمفكرين وفلاسفة وأدباء كبار. هل شاهدتَ مقبرة "بير لا شيز" في باريس؟ هناك تجد قبور المشاهير أضرحة محاطة بالتماثيل

منشورات «ألف باء AlfYaa»

وكل ضريح فيها قطعة فنية».

«نحن لا نستطيع تغيير طبائع الشعوب».

«صحيح، ولكن الناس في كل مكان وزمان يسعون إلى الخلود. هل راقبتَ إنساناً ما وهو يلاعب حفيده. إنه في ذروة السعادة والاطمئنان لأنه نجح أخيراً في نقل جيناته إلى جيلين».

«هذا لا ينطبق على فنّانينا المعاصرين. إنهم ينتجون إبداعاتهم على طريقة ماكدونالدز، المهم أن يكون هناك مستهلكون لها هذا اليوم فقط».

«الاستهلاك هو الضامن الوحيد لبقاء الرأسمالية. إنها مثل سمك القرش: إذا كفّت عن الحركة لحظة واحدة ماتت فوراً، نحن الوحيدون من يقف في وجهها بسعينا لتحقيق خلود ما لزبائننا».

أتذكر أن صمتاً ران بيننا جعلني أتململ تهيؤاً للمغادرة حين فُتح الباب الداخلي بتؤدة، ليظهر الشاب الذي جلب لنا الطعام ثانية. قال "إد": «هذا ابن أختي جوني. إنه متعدد المواهب: طباخ وسمكري وكهربائي و... ».

«أظن أنني شاهدته في الفيديو... ».

«طبعا ليس بملابسه الكاجوال هذه، بل ببدلة الشغل والقبعة السوداويين، وليس بهذا الوجه البشوش».

«نحن نقول في بلدي: لكل مقام مقال».

«أرجو ألا تعتبر سؤالي تطفلاً إن سألتك... ».

منشورات «ألف باء AlfYaa»

«أنا من بغداد».

«مـن مدينـة علـي بابـا، والبسـاط السـحري.. هـل هـي فـي أفريقيا؟».

«لا، في آسيا».

«اعذرني على جهلي، أنا ضعيف جداً في الجغرافيا. سمعتُ من بعض الزملاء أن خدمات الدفن جيدة فيها.. هل قررتَ..؟ ».

«لم أقرر بعد... هل خدماتكم تمتد للخارج؟».

«عندنا فروع في ثلاثة بلدان أوروبية، يعني أمامك أربعة اختيارات».

«هل الأقساط متساوية»؟

«أرخص قسط إذا اخترت الحرق، لأنك لن تحتاج إلى أرض».

«في رأيك، أيهما أفضل»؟

«لكل منهما إيجابياته وسلبياته.. الحرق على المدى القصير أفضل لأنك ستدفع أقل».

«وكيف هي السوق»؟

«الآن، النـاس تميـل إلـى هـذه الطريقـة أكثـر.. مـع ذلـك فنصيحتي هي الثانية... أنت على المدى البعيد قد تستفيد أكثر. ربما عظامك تشتريها مؤسسة بحوث طبية من أحفاد أحفادك... وإذا كنت محظوظاً أكثر، قد ينجح العلماء باستنساخك ثانية من تلك العظام نفسها... ».

منشورات «ألف باء AlfYaa»

ساد الصمت بيننا لحظات بدت دهراً، وعلى عيني بْروك الزرقاوين طفحت غشاوة جعلتني أشعر وكأن سنوات عديدة ركضت سريعاً خلال لقائنا. اكتشفت أن لغده أسمك وأوسع مما كان عليه قبل دقائق، حيث اكتسى لوناً زهرياً يتسق مع لون خديه المنتفخين وجبهته وصلعته الأمامية. راح صوته، عبر كلماته الأخيرة، يتغلغل في الفراغ الفاصل بيننا، فترجّعه الجدران الملأى بصور الزبائن الذين راحوا هم أيضاً يقهقهون عالياً، ليطغى ضجيجهم على موسيقى موتسارت الجنائزية.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

قبضتان

منشورات «ألف باء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

لم تكن سوى أربع خطوات تفصلنا عن بهرجة الأضواء، أربع خطوات في قلب عتمة تتعارض مع ضجيج الشارع وراءنا، ومع الفندق الصاخب بالحياة؛ وها أنذا مستلق بجانبها، يمس كتفي كتفها، وكفي كفها. وساقي ساقها، لكنني أعرف أيضاً أن محيطات تفصلنا عن بعض. أعرف أنها ما زالت مستيقظة، تراقب مثلي الظلمة المطبقة، لكنها بعكس أيامنا السابقة، تقيم في أعمق أعماق قوقعتها، وكأن جسدي المتماس مع جسدها ليس سوى جثة، أو أقلّ منها؛ فالجثة تترك أثراً ما على من يجاورها: خوفاً، قرفاً، اشمئزازاً، أما جسدي فهو فراغ، فراغ لا يترك كالسابق تلك القشعريرة على بشرتها حين تداعب أناملي كتفها العاري فتنتفض خلاياها بين أصابعي وتتصاعد أنفاسها الدافئة نداء خفياً لشدها إلى صدري.

لم تكن سوى أربع خطوات.

انقضى يومنا خفيفاً كالحلم. قالت "رجاء" لحظة خروجنا من الفندق: «كنت أظن الضباب ساكناً فعلاً في لندن». أشارت بفرح إلى السماء الزرقاء وجدران المباني الغامقة الحمرة المتألقة بضياء الشمس. «يبدو أنها لا تعرف الحلول الوسط»، قلتُ وأصابعي تتشابك بأصابعها: «إما مطر وعواصف وغيوم أو صحو وهدوء وشمس».

منذ وصولنا إلى هذه المدينة ونحن محاصران بالمطر. مع ذلك كنا فرحين بغضب عناصر الطبيعة حولنا، فكأنها كانت تحرضنا على المضيّ أكثر فأكثر في الانغماس بألعابنا. على

منشورات «ألف باء AlfYaa»

باب غرفتنا علّقنا يافطة: «لا تزعج رجاءً». ولم يكن هناك أي زائر باستثناء عامل الفندق الشاب الذي يأتي كل يوم لجلب وجبة غدائنا، وحال أخذ الصينية منه، يردد بنبرة ودية: «استمتعا به»، فيمضي على عجل في الممر المفروش بالسجاد الأحمر صوب المصعد.

ها نحن نخرج أخيراً من أسر السرير الوثير، تكاد أقدامنا لا تلامس الأرض في خطواتنا، فنتركها تقودنا كما تشاء في متاهة لندن: ساحة الطرف الأغرّ، قصر بكنغهام الملكي، البرلمان، كاتدرائية القديس بول، وعند عبورنا نهر التَايمز قالت "رجاء": «يشبه دجلة.. لكن الماء فيه أكثر».

لم تكن سوى أربع خطوات.

يخترق سمعي زعيق سيارة شرطة من الطرف البعيد للمدينة، يعيدني مرة أخرى إلى ما حدث هناك في تلك البقعة أو بالأحرى في الثقب الأسود ذاك. كم أتمنى لو تتاح لي فرصة أخرى كي أكون على استعداد للمواجهة حتى لو كان الثمن موتي: موتي وهل هناك أسوأ من موتي هذا؟ بمَ تفكر "رجاء" الآن وهي تتطلع في الفراغ المظلم؟ لا نأمة تصدر منها، لا نفَس، لا آهة؛ هل يمكن أن تكون قد..؟ لا مستحيل، حرارة جسدها تفضحها. أنا هو الميت الآن دون أن أدري.

على عجل، جاء قرارنا بالسفر إلى لندن. بدلاً من نفقات العرس الباهظة واتّباع التقاليد، سكنتنا فكرة القدوم إلى عاصمة الضباب: أغاني البيتلز، وساعة بيغ بن، وشارلوك هولمز وحكايات أغاثا كريستي، تجذبنا إليها، عروض الأوبرا التي تستمر سنوات. وهذا المساء فقط دخلنا إلى "مسرح كوين" دون حجز مسبق وقبل إغلاق الباب بدقيقة.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

"البؤساء": دهشة الألوان والأغاني وعروض الرقص.. لم تراودني فكرة حتى للحظة واحدة أنني سأكون واحداً منهم بعد العرض. كنت أظن أننا محظوظان لحصولنا على آخر تذكرتين متوافرتين، وكم كنت على صواب! لو أننا تأخرنا دقيقة على المسرح لتغير مسار الأحداث تماماً، إذ لعدنا إلى الفندق في ساعة مبكرة، ولكنّا الآن..

لم تكن سوى أربع خطوات.

بعد العرض قالت "رجاء": «تعال نروح لمطعم قريب، سأموت من الجوع». أجبتها متحمساً للفكرة: «أنا أكثر منك»، ثم أضفتُ غامزاً: «أحتاج أن آكل ضعفين»، فنكزتني بكوعها مستنكرة: «صرتَ سليط اللسان هذه الأيام». لكن الابتسامة التي أضاءت وجهها جعلتني مطمئناً أنها كانت تمزح. هل حضرها مسلسل علاقتنا العذرية منذ جلسنا معا لأول مرة في مقهى الجامعة وحتى سفرنا إلى لندن؟ قصائد الحب التي بقيتُ أدسّها بين رسائلي المنتظمة إليها ، على الرغم من أننا كنا ندرس معاً في نفس الصف كل يوم؟ في الطائرة بقيتُ صامتاً متشككاً بحقيقة كوننا وحدنا معاً بعيداً عن أفراد عائلتينا. ارتجّت الطائرة قليلاً لحظة دخولها مطبات هوائية، فطوقت يد "رجاء" لا إرادياً ساعدي تحت وطأة الخوف الذي ولّدته المفاجأة.

من المطعم كان أمامنا خياران: أخذ تاكسي إلى الفندق أو المشي ربع ساعة، فالخريطة التي كانت أمامي تشير إلى مسافة قصيرة بينهما. قالت "رجاء" حين خيّرتها: «مثلما

منشورات «ألف باء AlfYaa»

تحب». ومثلما أحببتُ دعوتها لرحلة تسكُّعنا الأخيرة على الأقدام قبل أن يلمَّنا السرير بحنوّ إلى ثناياه، ناسياً أن الساعة قد تجاوزت منتصف الليل، وأن شوارع لندن تحب خداع زوارها حتى لو استخدموا أدقّ الخرائط.

من محطة المترو خرج عدد من الشباب يرتدون أقنعة متشابهة، يحمل بعضهم زجاجات نبيذ أو علب جعة. كل شيء بدا خفيفاً مرحاً. مدّ أحدهم زجاجته إلينا: «تفضلا، خذا جرعة». تجاهلتُ عرضه بينما شدت "رجاء" على عضدي، فرحنا نرمي خطوات أوسع لتجاوز المحطة.

متى أدركتُ أننا كنا نسير في حلقة مفرغة وأن فندقنا اختفى كفص ملح في حوض ماء ساخن؟ مرت أكثر من سيارة تاكسي بنا، لكنني بقيت رافضاً إغراءاتها. شيئاً فشيئاً بدأت الشوارع الفرعية المعتمة تفرغ من روادها، عدا تلك النوادي الليلية التي يقف أمام أبوابها حراس ضخام ببدلات سوداء. وحين ظهرت خلفية الفندق، تنفستُ الصعداء دون أن أُشعِر "رجاء" بالقلق الخفي الذي تسرب إلى أنفاسي حتى تلك اللحظة من الضياع. لم يبق أمامنا سوى الاستدارة يميناً ثم الانعطاف في أول فرع ضيق، حيث تتأجج مصابيح الفندق فتعكس الساحة الصغيرة أمامه أضواءه إلى فضاء الليل.

كأني في لحظات الاطمئنان تلك تخليتُ عن كل ما في جعبتي من توفُّز واستنفار. بدلاً عن ذلك استسلمتُ – دون إرادتي - لخيالي وهو يقودني على عجلة إلى فراشنا الذي تركناه صباحاً في أسوأ حالات الفوضى. لا بد أن الشراشف المشبعة برائحة العرق وأشنيّات البحر قد بُدّلت بأخرى، نظيفة، جافة، ومعطرة.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

تنهض عروسي- أو من كانت عروسي- على مهل، من السرير، أستطيع أن أرى حواف ظهرها خطاً واهياً أقل عتمة من حوله، ها هي تتوجه في قلب ظلام الحجرة صوب الحمام. يشتعل الضوء فيه لحظة واحدة تكفيني لاسترجاع ملامح المكان ثانية قبل أن تغلق الباب وراءها، تسكنني العتمة مرة أخرى. أشعل سيجارة، أراقب ذؤابتها القرمزية وهي تتحرك في الفضاء بين يدي وفمي كأنها مرجل متحرك. أتذكر حساسية "رجاء" من التبغ المحروق، وكيف جعلها تدخيني المتكرر تسعل بضراوة. قالت، في آخر مرة لي مع السيجارة، بنبرة اعتذارية خجول: «آسفة حبيبي.. ولا يهمك.. اِستمتع كما تريد، ولكن اعتنِ بصحتك من أجلي.. »، ثم لامست أناملها وجهي وفي عينيها أضاءت ابتسامة حنون وعلى خديها انبجست تفاحتان قرمزيتان. كم يبدو ذلك المشهد بعيداً الآن: ثلاثين، أربعين عاماً، لا مجرد نصف يوم!

أنهض من السرير، تتخبط خطواتي حتى أصل إلى الباب الزجاجي العازل بين الشرفة والغرفة. أتركه مفتوحاً قليلاً. أسدل ورائي الستارة الزرقاء السميكة على الفراغ القائم بين لوحيه الزجاجيين، ثم أعيد لصقهما ببعض. ها هي السماء فوقي شاشة سوداء خالية من النجوم، مثلما هو الحال مع الطرق التي خلت من عابريها، فلا شيء يؤكد على استمرار الحياة في المدينة عدا تلك الأضواء الشاحبة المنعكسة على شوارعها والعربات القليلة العابرة وسطها من وقت إلى آخر.

لا بد أن "رجاء" عادت إلى السرير الآن. تُرى هل أغفت؟ أم هي مثلي تعيش ذلك الكابوس: أسطوانةً مشروخة تأبى

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الانزياح؟ كم أتمنى لو كنتُ قادراً على سماع صوتها الداخلي أو لو أنها قادرة على متابعة ما يدور في رأسي، كم سيكون سهلاً علينا رأب الجسور المقطوعة بيننا لو تحقق ذلك! من فوق الحاجز الفاصل بين الشرفة والفضاء أستطيع بسهولة العثور على تلك البقعة المظلمة، لكنها من الطابق الخامس تبدو مكشوفة تماماً، ولا أستبعد أن بعض نزلاء الفندق تابعوا بأعين محايدة ما كان يجري، فكل شيء نراه من فوق هو مصدر فضول أو إمتاع أكثر من أي شيء آخر. لا بدّ أن شجرة السنديان تلك هي التي مكنتهم من الاختفاء وراءها، وهي التي استدرجتنا إلى عتمة ظلّها. وهناك برزوا فجأة أمامنا قاطعين الطريق علينا.

تعود لندن إلى عادتها الأثيرة: مطر ناعم مائل يتسلل دون استئذان فوق جبهتي المبتلة بالعرق، كأنه جاء ليكسر ذلك الشعور المتجدد لحظة بعد أخرى، بالنفور العميق من الذات. أتحسس حافة الحاجز المعدني المبلل. لن يستغرق بلوغي تلك النقطة المضاءة من فناء الفندق أكثر من خمس ثوانٍ: نفس الزمن الذي استغرقه بروز تلك القبضة أمامي. في كلتا الحالتين هو انتحار: الأول انتحار ناجم عن جبن مطلق والثاني عن شجاعة مطلقة، وبجمعهما يزيل أحدهما الآخر، وقد أسترجع ثانية "رجاء" آنذاك.

يشق البرق عتمة السماء، متبوعاً برعدة واهية، يعمق المطر جديته أكثر فأكثر، ها أنذا أسبح بشلاله المتواصل، دون الشعور بأن المتضرر هو جسدي. بل كأني مقيم في مكان آخر بعيد عنه. تحضرني رغبة بالعودة إلى السرير، لكن صورَتَي

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الفراش المبتل وعيني "رجاء" الممتعضتين تردعانها بشدة. كم سيكون رد فعلها مختلفاً لو أن ما يحدث الآن قد وقع أمس.

لم تكن سوى أربع خطوات.

ونحن نقترب من الشجرة، شدّت "رجاء" بكلتا يديها على ذراعي، كان الدم في عروقها ينبض بقوة على كمّ سترتي، كأنها استشعرت الخطر الكامن وراء جذع السنديانة الوحيدة. ها هي الأقنعة التي شاهدناها قرب محطة المترو تظهر ثانية، ولعل الابتسامة المرسومة فوقها زادت في خداعي. كانوا ثلاثة، ورابعهم كان وراءنا يراقب الشارع. اصطفوا أمامنا مشكلين مع الشجرة والجدار العالي طوقاً، فلم يبق أمامنا سوى التراجع خطوتين ثم الانحراف يساراً لندخل في فناء الفندق، حيث الأضواء الساطعة، وحيث الأمان المطلق. كان عليّ أن أعتّ ذراع "رجاء" المتشبث بقماش سترتي وتنفيذ ذلك الخيار فوراً، كان عليّ..

تغرق المدينة بالصمت، ومعه يتوقف المطر أخيراً، يلتمع الفناء المفروش بالحجر تحت ناظري، تزوغ عيني دون إرادتي صوب تلك البقعة المشؤومة، أراهم الآن حال إغلاقي عيني كأنهم منقوشون فوق لحاء الذاكرة. أسمع صوتاً مختنقاً يصدر من فمي: "أهلاً». ولا بدّ أنني تجاوبت مع التقاطيع المرسومة على أقنعتهم بابتسامة متخاذلة. جاء صوت الواقف وسطهم، خافتاً خشناً أقرب منه إلى الفحيح:

ـ حين مررتَ بنا، ألقيتَ علينا نظرة احتقار.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ـ أنا؟ أين؟

ـ بجانب المحطة.

ـ أقسم أنني لم ..

وقبل إكمال جملتي، أخرج المتحدث يده من جيبه، قبضةً ضخمة، تحمل سكيناً صغيرة: «أعطني نقودك.. بسرعة». ها هي يدي اليمنى تتحرك دون إذني، فتقتحم جيب سترتي الداخلي وتُخرج المحفظة. وحال بروز نصفها انقضّت يد أحدهم عليها، ثم انطلقوا في الركض صوب الشارع الفرعي، بخطوات تكشف أنهم مجرد مراهقين أرادوا تقليد فيلم بوليسي ما، تتبعهم قهقهات شيطانية.

تمر أصابعي على حافة الحاجز المبلل، بينما تنحرف عيني صوب البقعة نفسها. يزعمون بأن مكان الجريمة يجذب القاتل كالمغناطيس، ولعل ذلك ينطبق على القتيل أيضاً لو عاد إلى الحياة. هناك على بعد مترين من "الحادث"، سحبت "رجاء" يدها المختضّة من يدي، وشدت ذراعيها فوق صدرها. بدا لون وجهها تحت وهج البروجكتورات شاحباً، خالياً من أي تعبير، كأنها ارتدت قناعاً استعارته للتو من متحف مدام توسّو، ها هي تبتعد يساراً عني، تُثقل خطاها قليلاً كي تكون ورائي.

كل شيء تواطأ لتحقيق هذه الخطوة: مصادفات هنا وهناك، قرارات صغيرة وكبيرة، حماقات لا أول لها ولا آخر. نقطة البدء: لحظة الولادة؛ نقطة الخاتمة: تلك البقعة المخصصة لجثتي أمام باب الفندق الأمامي. بين النقطتين خط متعرج لم أره من قبل إلاّ الآن، لحظة انفصالي عن الجسد المتواطئ. الآلام الموغرة في الروح لا تعالَج إلاّ بآلام أكبر منها. ها هما

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

يداي تقبضان على حافة الحاجز، بينما تتسلق قدماي بعناد المشبَّك المعدني. دوار يجتاحني، يتسارع شيئاً فشيئاً، شيئاً فشيئاً، تتراخى أصابعي، ينفرج الإبهامان عن مقبض الحاجز، ثم، عاصفة تجرفني، تقتلعني من السياج، أهوي على ظهري، سقوط حر متباطئ يجرني صوب الهاوية، وحال ارتطام جسدي بها، يطبق صمت لحظة: هل النهاية هكذا؟ يتضاءل دوران المكان، أفتح عيني، بصيص ضوء متسلل من الحجرة يكشف لي أنني ما زلت في الشرفة منطرحاً على أرضيتها، وبجانبي "رجاء" جالسة على ركبتيها، تمسك بقبضتها مزقة من قميص، وبالأخرى تمسد شعري. بدت لي بعينيها المتوفزتين، العازمتين، امرأة أخرى: محاربة أمازونية خارجة للتوّ من قلب أسطورة إغريقية قديمة. أحاول التكلم فتتفتت المفردات على لساني. تضع يدها على فمي. تردد ضاحكة بنبرة زاجرة: «لن تفلتَ من يدي أبداً.. ».

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

رماد

منشورات «ألف باء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

يتسرب إليها، مثل قطرات المغذي المعلق فوق رأسها، شدو بلبل متقطع من وراء النافذة المجاورة لسريرها، فينتابها شك بحقيقة ما تراه وما تسمعه. يحضر إليها، ذلك المشهد الذي تكرر حتى تلك اللحظة: أن ترى نفسها نقطة عائمة في الفراغ، أقرب للسقف منها للأرض، وهي تراقب الجسد الذي التمَّ حوله أشخاص يرتدون أكماماً بيضاء. تسكنها قوة دافعة للخروج من النافذة وترْك الآخر مضطجعاً على طاولة محاطة بأجهزة تبث إشارات ضوئية، لكن كسلاً يسكنها من اتخاذ قرار قاطع، فتظل تراوح في مكان ما. تقترب من طاولة العمليات أكثر فأكثر. ها هو الجسد ينتفض تحت مسّ تلك العصا المعدنية له، لكنه يعود للخمود مرة أخرى.

تزداد الأصوات وضوحاً وصلابة، تنصت، باندهاش، إلى صليل الصحون، ودمدمة عجلات تتقدم صوبها، تفغم أنفها رائحة البيض مختلطة برائحة الأسفنيك، فتتنفس بعمق، كأنها عادت من رحلة لا إياب منها، أو لعلها عودة من دون جسدها الذي تركته هناك خامداً، تتلاعب به أيدي الرجال، لكن ملمس الأشياء التي حولها يؤكد حقيقة حضوره معها: البطانية الصوفية التي تحت باطني كفيها، الشرشف الناعم فوق ساقيها، وألم الإبرة المغروزة في ذراعها، حيث ينتهي أنبوب المغذي الساكن فوق رأسها.

عبر شبكية عينيها الواهنتين، تراه جالساً أمامها على كرسي، أو لعله يتراءى لها، تستطيع أن تتخيله راسماً تلك

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الابتسامة التي ظلت طوال سنوات عيشهما معاً، تحفزها لتأويلات مختلفة: هل هي تعبير عن سخرية مبطنة، إعجاب بفعل ما قامت به، غضب أو ندم من اقترانه بها؟ كم كانت تشعر باضطراب وهي تراقب انفراجة فمه المائلة، دون بروز أسنانه، وعينيه نصف المفتوحتين، ورأسه المائل إلى اليمين، ووجنتيه المبتهجتين بلحظة انتصار غامض.

وكأن تلك الابتسامة التي تواجهها الآن قناع لسؤال يدور حقاً في ذهنه: «كيف تخذلينا هكذا؟ هل فكرت بطفلينا لحظة واحدة»؟ تنكمش على نفسها، عرق غزير ينضح من مسام بشرتها تعبيراً عن خجل يتلبُّسها. تسمع صوتها الداخلي متضرعاً: «أقسم أن ما حدث كان خارج إرادتي. الإغماء وقع من دون أي سبب». يأتيها صوته ثانية بعد فترة صمت، ظلت ابتسامته خلالها صلدة كالصخر:

«النوبة القلبية لا تأتي من دون سابق إنذار».

«ذهبتُ إلى الطبيب قبل أسبوعين، وقال لي: كل شيء تمام».

تتسارع نبضات قلبها، تتقطع أنفاسها، كأن الهواء تلاشى من غرفة العناية الخاصة. تحضر على عجل ممرضة، تضع كمام الأوكسجين فوق أنفها، يتدفق الغاز مالئاً قصبات رئتيها، دافعاً إياها للانغمار في دوامة شهيق وزفير متعاقبين. «كل شيء على ما يرام»، تقول الممرضة، «عليك أن تبعدي الأفكار السوداء من رأسك فقط».

تفتح عينيها، فتراه هذه المرة واقفاً أمامها، تداعب كفه اليمنى خصلات شعرها، وجهه يطل من علٍ فيملأ ناظريها،

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

تندهش لمرأى الدموع في عينيه بدلاً من ابتسامته المنقوشة في ذاكرتها البصرية، كأنه أدرك أن ما حدث لها كان خارج إرادتها. كم تشعر بالجميل له. إنه، على عكس ما يدور في رأسها عنه، يحبها، لكنه لا يعرف التعبير عن عواطفه. صحيح أنه لم يصرح بذلك يوماً، ولكن أن يرتبط بها، وهو النجم الذي كان يشار إليه بالبنان في كل مكان، شيء أقرب للخيال منه للواقع، إذ ما هي الصفات التي تميزها عن قريناتها كي يختارها هي بالذات زوجة، أكثر من كونها صديقة أخته المقربة خلال سنوات دراستها الجامعية؟

قالت هدى: «صحيح، منير أخي الأكبر، ولكني أخاف عليك منه. هو أبدى إعجابه بك».

ولم تفسر تحفظ صديقتها إلا برغبة الأخت بالاحتفاظ بأخيها أطول فترة ممكنة. «هو بحاجة إلى امرأة قادرة على إنزاله من عرشه»، أضافت هدى ضاحكة.

سألتها بتردد: «كيف تفسرين ما في قصائده التي نحفظها من نكران للذات وحب للغير».

«الشاعر والإنسان عملتان مختلفتان في روح منير". قالت صديقتها، لحظة صعودها الحافلة: «الإنسان فيه فرعون مستبد، والشاعر مسيح.. ».

في تلك الليلة هرب النوم عن عينيها، وظلت تتقلب في الفراش، حيث كلمات صديقتها تتكرر في أذنيها بإيقاعات مختلفة، يتخللها شك عميق بصدق ما سمعته منها. لعلها أرادت أن توقظ فيها الأنوثة النائمة، على حساب مشاعر الأمومة المغروزة فيها بعمق تجاه من يحيطها. ماذا يجذب "منير" إليها

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

وهو المحاط بالمعجبات الفاتنات. لعل هدى حرفت كلماته، فالإعجاب كان موجهاً إليها كشخص لا كامرأة. استيقظت الأخيرة فيها بالكامل تلك الليلة، وكأنها راحت تستقبل لمسات منير لشعرها كما فعل قبل دقائق. وها هي تراه جالساً أمامها، بعد ست عشرة سنة، شادّاً ذراعيه إلى صدره، وعيناه تتطلعان إليها بحنو لم تألفه من قبل. هل هي شفقة محض أم خوف من المجهول على ولديهما؟

اكتشفت مع مرور الزّمن ، أنه يعيش عزلة عميقة عن الآخرين، على الرغم من تعدد أتباعه. إنهم مبهورون بمنير الشاعر، الشخص السماوي بين كائنات أرضية، هي في أمسّ الحاجة إلى قبس يخرجها من ظلمات كهوفها. إنهم هنا لا ليناقشوه أو يختلفوا معه بل لينصتوا، ليعبروا عن إعجابهم، ولم يكن شغفه بالقراءة إلا لتحقيق هذه السلطة المطلقة. فحالما يتجاوز أحد الأتباع الخط الأحمر ويبدأ بالمنافحة، يطرده من فردوسه، حيث تظهر تلك الابتسامة المخيفة على تقاطيع وجهه معلنة عن عدم رضاه.

كم شعرت في البدء بإعجاب مطلق بسلطته الروحية على الآخرين، كأنها دون أن تدري، جعلتها تتقاسم معه تلك المكانة بين الآخرين.

إنها تسمع صوتها، كلما تكلمت مع الآخرين، يكرر أفكار منير. كأنها كانت تسعى إلى التماهي المطلق به، وحين تخطر في ذهنها فكرة ما ينتابها خوف من أن تكون مخالفة لقناعات زوجها. هل تسأله عن رأيه؟ وماذا لو وجد فكرتها خالية من أي قيمة؟ في الكثير من أحلامها كانت ترى نفسها شخصا

منشورات «ألف باء AlfYaa»

متنكراً بقناع، وغالبا ما يكون هذا الشخص مرتدياً ملابس رجالية، ولن تكتشف الحقيقة إلا حين يخلع الغريب قناعه وثيابه لتدرك أن من تراه هو صورتها في المرآة.

يعود البلبل إلى غنائه المتقطع، المتناغم مع حفيف مطر خفيف دؤوب، يتسرب إليها عبر النافذة الصغيرة المجاورة لسريرها، فيعصف في روحها فرح غامض، ماذا لو أنها أثارت انتباهه لهذين الصوتين الممتزجين معاً قريبا منهما؟ هل ستعود ابتسامته المعهودة إلى وجهه، فتكتشف ضآلة انطباعها. لعله سيعلق ساخراً: «أنت تقلدين جون كيتس وهو يستمع إلى بلبله المقيم في جنينته»، فتلتزم آنذاك كعادتها بصمت مطلق.

«سأعد اليوم أكلة خاصة جداً بمناسبة عيد ميلادك»، تقول له متحمسة، فيجيبها بنبرة ساخرة: «هل ستكون مختلفة عما تعلمتِه من أمكِ؟».

طبقات تتكلس واحدة فوق أخرى: صمت فوق آخر. انكسار فوق آخر. خجل فوق آخر. تفتح بؤبؤي عينيها أقصى ما يمكنها: تتطلع في وجهه، فيبدو لها شخصاً آخر أصغر حجماً بكثير عمن كانت تراه من قبل. أقل جاذبية بكثير عمن كان من قبل. إنها المرة الأولى التي تكتشف فيها صلعته الواسعة. ها هي عيناها تكتشفان تلك الخصلات الطويلة الممتدة من صدغه الأيسر حتى أعلى أذنه اليمنى. وكم ظنت أن عادة إمرار أصابع يده اليمنى على حافة رأسه تعبير عما يجول في رأسه من أفكار عظيمة. هل هي ضحكة مكبوتة تلك التي تدفع بطنها إلى القرقرة؟ كأن غشاء يرفع عن عينيها فتراه كما هو الآن: عينان جاحظتان، وأنف صقري وحنك بارز.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

تسترجع كلمات هدى: «لا تنسي أنه يزيدك بخمس عشرة سنة". فلم يزدها إلا إصراراً على الموافقة. أغلقت أذنيها أمام نصائح الجميع بالتريث في الزواج. قال والدها مُترجياً: «إذا ألغيتِ الفكرة سأساعدك لإكمال دراستك في أحسن جامعات الغرب». قال أخوها رشيد: «أنت متفوقة في دراستك، ويمكنك أن تصبحي عالمة كيمياء بارزة». قالت أمها..

تستقبل عيناها كهلاً وسيماً يمشي صوبها ببطء، تتقدمه بخطوة ممرضتها، ووراءه فريق صغير من شبان يرتدون صدريات بيضاء. يحييها مبتسماً، يتلعثم لسانها خلف كمّام الأوكسجين. يأتيها صوت الممرضة وهي تشير إلى الزائر المجهول: «هذا هو الطبيب الذي عالجك أمس.. ». يعلق الأخير وعيناه تتطلعان في لوحة المعلومات بين يديه: «لقد سرقناك من فم الموت..». يلتفت إلى منير: «حضرتك قريبها»؟

«أنا.. زوجها».

«هل سمعتْ السيدة أمس خبراً سيئاً»؟

«لا، كل شيء كان تمام».

«النوبة التي أصابتها حالة نادرة، كل التحليلات تشير إلى تمتعها بصحة جيدة».

تصلها كلمات الطبيب الأخيرة قبل انصرافه: «ما زالت زوجتك تعاني من الخفقان. وهذا شيء غريب. ستبقى هنا أسبوعاً حتى تستقر حالتها الصحية».

تنسل الأصوات شيئاً فشيئاً من الغرفة ليعود الصمت إليها،

منشورات «ألف باء AlfYaa»

يحضرها سؤال ظل الآخرون يتهامسون به: «ما الذي دفع منير ليطلب يدها»؟ وكم كان حريّاً بهم أن يسألوا بدلاً عنه: «ما الذي دفعها للموافقة»؟ فهي البنت المدللة بين إخوتها الأربعة، وابنة الأسرة الثرية المتعلمة أباً عن جد. هل هي تلك الرغبة العميقة بالخروج عن سياق حياة ترسمها الثروة إلى سياقٍ مجهول العواقب لكنه مصوغ بإرادتها وحدها؟ كل شيء ممكن.

الآن، فقط، تتلمس هذا السياق. كأن "منير" بانفضاض المعجبين عنه، وعن قصائده الحماسية الساخرة، لم يعد مكتفياً بصمتها، بل أراد أبعد من ذلك: أن تصبح أثيراً لا حضور له إلا في جلسات الحب القصيرة التي تجمعهما. هناك تلفهما ظلمة مطبقة، فيصبحان مجرد كتلتين أخف عتمة، لا يميز أحدهما الآخر. مع ذلك، فهي تتشبث بخيط النجاة الذي يرميه منير إليها في تلك اللحظات الحميمة، وكم يملؤها عرفان عميق بالجميل.

هل سعى جسدها لأن يصبح، حقاً، هو الآخر أثيراً كما أراد منير، فجعل صدرها يقلل من أنفاسه، وقلبها من نبضاته؟ هناك في عالم تحكمه قوة العادة كانت تسكن على شفا هاوية اسمها طرد الشاعر الكبير لها من حياته، لكنها رغماً عن إرادتها ظل المحظور يقع كل يوم في أحلامها. كم ظل ذلك الحلم يتكرر بطبعات مختلفة: مرة تشاهد نفسها على جبل تنهار تحتها الصخور فتتشبث أصابعها بصخرة متقلقلة، ومرة تشاهد نفسها في بحر، ثم فجأة تدخل في دوامة تشلها عن السباحة صوب الشاطئ الآمن القريب.

تتمعن في وجهه ، فيبدو لها وكأنه غارق في إغفاءة. تسمع كلماتها تدور في رأسها: « لماذا أنتَ هنا»؟

منشورات «ألف باء AlfYaa»

تحضر ممرضة أخرى لم ترها من قبل، «انتهى وقت الزيارة أستاذ»، تقول لزوجها بنبرة حازمة، «غداً يمكنك أن تأتي».

يسأل منير: «أستطيع جلب الأطفال»؟

«لا.. حتى تخرج زوجتك من غرفة العناية الخاصة».

قبل المغادرة، يطبع على جبينها قبلة، فينكمش جسدها على نفسه. يداعب شعرها الأشعث، فتقشعر بشرتها، يهمس بعبارات رقيقة، فتغلق أذناها مسارب صوته. بل حتى عيناها تنغلقان بإصرار عن مرآه. وحال توجهه صوب الباب راحت تنصت إلى إيقاع ضربات حذائه، وهو يتضاءل خطوة خطوة. بدا لها ذلك الوقت ساعات أكثر منه ثوانيَ. ها هو يختفي أخيراً. وكأن رئتيها كانتا تنتظران تلك المناسبة لتعلنا عن اختناقهما من الأوكسجين المُصنَّع، فتدفعانها لرفع الكمّام عن أنفها، بل وحتى قلبها الذي أذعن أمس لأمرها بالصمت راح ينبض بحيوية وانتظام.

بين مساحتي الكرى والصحو، تطفو الآن خفيفة حرة من سطوة الجاذبية الأرضية. يحضرها حلم قابل للَّمس بألوان أقرب لألوان الطبيعة. ها هو سقف الغرفة يرتفع أعلى فأعلى حتى يختفي، ومعه تتسع الحجرة حتى تصبح سهلاً يمتد حتى يلاقي الأفق المديد. وكأن حيرة تسكنها لتحديد مسار خطواتها. فجأة تلوح لها نخلة على هيئة ظلّ ملصق في الفراغ الشاسع. تتقدم صوبها. ها هي تصل إليها، فيملؤها جزعٌ لما تراه. كانت النخلة محروقة تماما. مع ذلك، كان لونها أقرب إلى اللون الرمادي منه إلى الأسود. تمد سبابتها لتمسها، فيتساقط الرماد

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

فوقها ركاماً فوق ركام. لكنها تنفضه عنها بخفة، وقبل أن ترمي خطوة إلى أمام، تلتقط عيناها فسيلاً شديد الخضرة، يكاد يندفع إلى السماء من قلب النخلة المحترقة.

تسترجع خيط الوعي، فتعود محتويات الغرفة إلى الظهور أمامها، أكثر دكنة مع حلول الغروب. يتسرب إليها صليل الملاعق والصحون من الغرف الأخرى مختلطاً بهسيس المروحة السقفية البيضاء وزقزقة العصافير عبر النافذة المجاورة. يستيقظ جوع كاسح في أحشائها، ورغبة شديدة بالتمشي. تضغط على جرس الطوارئ عدة مرات، فتحضر الممرضة على عجل.

تجلس على سريرها كأنها زائرة أكثر منها مريضة، تسمع صوتاً، قوياً، حازما يخرج من صدرها: «لا أحتاج المغذي.. أريد "أكل ساخن" حالاً.. ».

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

لعبة الأقنعة

منشورات «ألف باء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

(1)

تسترجع الغرفة أخيراً نفسها أمامه، ها هو يهبط في مظلة شديدة البطء حتى تلامس قدماه سطح الفراش الناعم. تلتقط عيناه الفوضى المتمثلة بقطع الملابس المتناثرة على السجادة والسرير، وعند الجدار المقابل له كانت تجلس بثوب النوم الزهري، أمام طاولة الزينة، منشغلةً بإزالة طبقات المكياج السميكة عن وجهها، وإلى جانبها استلقت باروكة الشعر الأشقر. جاء صوتها غريباً عنه:

«تقدر أن تجلب وئام من المدرسة».

«بالتأكيد».

وبدلاً من النهوض، غطى رأسه تحت اللحاف، وراح أنفه يبحث عن عطر نسائي غادره تواً، بينما مضت ذاكرته تسترجع عبثاً تفاصيل الصباح. كان يشاهد آنذاك خيطاً سرابيّاً يتنقل أمامه بين حركتين متناوبتين: الانطفاء والاشتعال؛ الظهور والاختفاء.

(2)

قبل أن تلتقط أذناه رنين الجرس تسربت إليه رائحة عطر نسائي غامض، جعلته يُخرج رأسه من تحت اللحاف،

منشورات «ألف باء AlfYaa»

ويستغرق في استكشافها متلذذاً. سمع صرير المفتاح الدائر في قفل الباب الخارجي فتصاعدت نبضات قلبه.

لا بد أنها لوسي، فالرسالة التي استلمها على هاتفه الجوال مساء أمس تكشف عن هويتها، بالرغم من توقيعها باسم فرنسي مثير: شانتال. «هل ستعمل زوجتك غداً»؟ ولم يحتج إلى أكثر من دقيقة ليجيبها، فنوال كانت في فراشها، وليس مستبعداً أنها غفت الآن.

«نعم».

« متى ستعود»؟

«حوالي الثانية».

أصابه هلع وهو ينصت إلى ضربات الكعبين الثاقبين أثناء عبور لوسي مدخل الشقة، إذ لم يمض على خروج زوجته من البيت سوى دقائق، ولم تزل آثار عطرها مبثوثة في الفراش، فكأن الجارة الفاتنة كانت تراقبها من النافذة. توقع انفتاح الباب على مصراعيه في أي لحظة لتظهر أمامه مرتدية كعادتها بنطلون جينز وجزمة، وعلى رأسها بيريه فرنسية ذات لون فاقع. بدلاً من ذلك حل صمت مفاجئ في المكان، منحه فرصة لالتقاط أنفاسه، والنهوض من سريره.

لم تنشأ علاقته بالجارة الشابة التي تسكن بالضبط فوق شقته إلا بفضل نوال، فحالما منحتهما البلدية إياها، راحت زوجته تتودد لكل ساكني المبنى عند التقائها بهم مصادفةً. ولم يمض سوى وقت قصير حتى بدأ يشاهد بعض النساء يترددن إلى بيته. تصيح نوال بإصرار حينما يعبّر عن استيائه: «هذه هي

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الطريقة الوحيدة التي يمكنك أن تتعلم الإنجليزية بها».

كان رد فعل الجيران تجاه إغواء نوال لهم مختلفاً، فهناك من تحصن أكثر فأكثر من تقربها، وحالما كانوا يشاهدونها يمضون في خُطىً سريعة وهم يرددون بابتسامة مصطنعة «إنه جو لطيف اليوم، أليس كذلك؟». لكن شعبيتها كانت كبيرة بين الآخرين، خصوصاً بين الأمهات العازبات وكبار السن الوحيدين.

تسربت إلى سمعه طقطقة صحون في المطبخ. لا بدّ أن لوسي تعد لها كأساً من القهوة الآيرلندية ولا بد أنها ستجلب كعادتها واحداً له. تقول له كلما التقيا: «أفضل مكان أشربها فيه سريرك». وحينما سألها ذات مرة إن كانت تتناولها مع جون أيضاً في الفراش، صمتت لحظة: «حينما نلتقي فكر فيّ فقط فأنا لا أفكر إلا فيك». لكنه لم يتمكن من تحقيق ذلك يوماً. فصديقها يحضر معهما حتى في أكثر اللحظات حميمية.

قبل تعرّفه إليها أثار انتباهه أولاً قدوم جون شبه المنتظم في عطلة نهاية الأسبوع إليها. وبوجود طفل معها، ظن في البدء أن الآباء لا يعيشون مع أسرهم هنا، لكن بفضل المعلومات التي ظلت نوال تنقلها له عن "صديقاتها" توصّل إلى حقيقة ظل يشك بصحتها حينما كان في بلده: يمكن للنساء هنا أن يصبحن أمهات بدون زواج.

يتابع من النافذة المحظوظ جون قبل مغادرته المنطقة، وإلى جنبه تقف لوسي وطفلتها. «أراك حبيبتي في الأسبوع المقبل»، ثم تطلب الأم من صغيرتها «قولي باي»، قبل أن يحرك صديقها سيارته ويمضي إلى شؤونه الأخرى.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

أصبحت ليلتا الجمعة والسبت مصدر توتر وتشويق. فبدون إرادته كانت أذناه تستيقظان بعد منتصف الليل لتتابعا أي نأمة تصدر من السقف، متجاهلتين في الوقت نفسه أنفاس نوال الثقيلة. أحياناً تخترق عينه الثالثة العازل الفاصل بين الغرفتين لتحلق فوق جسدي لوسي و جون فتنقل ما يدور بينهما بحيادية مطلقة. ثم تحضر إليه صورة جون مودعاً صديقته، خفيفاً مثلما جاء، «أراك حبيبتي...»

بالعكس من جون يجد هو نفسه مقيداً إلى نوال، ففي أعماقه تتعايش عاطفتان متناقضتان تجاهها: حينما تغيب عن البيت طويلاً ينتابه شعور بالوحشة والانقباض وحينما تحضر يسكنه شعور بالملل والرغبة بالفرار. كأنها أصبحت له في آن سجناً وآصرة بالعالم الخارجي. ماذا سيعني كل هؤلاء الجيران له بدونها؟

«هل تعرف أن سوزان أصبح عندها بوي فْرَيْنْد»؟ تخبره بطريقة محفزة للفضول.

«في هذا العمر»؟

«نعم، لكنها تقول إنها تشعر بالحرج معه أمام أحفادها»؟

«لماذا»؟

«سمعه ضعيف جداً».

ومنذ ذلك الوقت دخل "إدي" صديق سوزان الجديد حيز تفكيره، وراح يتابع قدومه المتعثر إلى البناية، حاملاً أحياناً باقة ورد في يد وفي اليد الأخرى عصاه.

ارتفع صوت المسجل من غرفة الجلوس، صادحاً بأغان

منشورات «ألف باء AlfYaa»

رومانسية شهيرة. تنتمي إلى عصور بعيدة لا يعرف عنها شيئاً. كانت لوسي حريصة على تعريفه بأسماء المغنين الذين لم يسمع عنهم أي شيء من قبل: فرانك سيناترا، ألا فيتزجرالد، جيم ريفز. بل كتبت له كلمات الأغاني. تقول ضاحكة «عليك أن تحفظها وتغنيها لي».

لكن ذاكرته هربت من تلك اللحظة لتنقله إلى لحظة أخرى: ها هو صدى الأغاني نفسه يتسرب من السقف، من وقت آخر يعود إلى ما قبل ثلاثة أيام، حينما حضر جون إلى بيت لوسي، ولا بد أنها وضعت الكاسيت نفسه بعد تناولهما العشاء: إنهما الآن يرقصان ككائنين تلامسا للتو، مخلصين تماماً لسحر اللحظة: بلا ماض أو مستقبل يشدهما. يصيخ السمع أكثر فأكثر، تتحرك أقدامهما على إيقاع الموسيقى البطيء، ولا بد أن الأضواء كانت خافتة وذراعاه التفتا حول ظهرها، في وقت تشابكت أصابع يديها ببعضها وراء رقبته.

استلقى على السرير، ومن خلف عينيه المغمضتين برزت ملامح وجهه غريبة عليه. كأن قناعاً تلبسه شبيهاً بوجه جون. قالت له نوال ليلة السبت الماضي في الفراش: «أنت متوتر جداً اليوم. هل هناك سبب لذلك»؟ دمدم متبرماً من السؤال وهو يدير ظهره إليها: «أبداً. كل شيء على ما يرام». قالت ضاحكة: «أنا أعرف سبب انزعاجك. حممتُ وئام اليوم بدون أن أحممك». صاح محتجاً: «أنا مرتاح تماماً. إنها أوهامك فقط». ولم تمض سوى دقائق حتى انقطع صوتها تاركة إياه لهواجسه. ظلت عيناه مفتوحتين في العتمة المطبقة بينما راحت أذناه تتسللان بدأب إلى السقف. في لحظة مجهولة، جاءته

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

صرخة نسائية مختنقة بعد أن تفتتت عبر الإسمنت والفولاذ والحجر إلى همس مسحوق، ففجرت في أنفاسه غصة عميقة.

ارتفع صوتها مُناغياً من الحجرة الأخرى: «هازم، كَمْ أون، وَيرْ آرْ يو؟» وحينما كررت جملتها ثانية بنبرة أقوى حاول أن يرفع جسده من السرير لكن بدون جدوى. تسرب إليه خدر معاكس تماماً في قوته للرغبة المتأججة في أنفاسه. راح يردد كلمات متقطعة بإنجليزية متعثرة: «انتظري قليلاً، أنا في طريقي إليك». لكن صوت لوسي ظل يتردد بنبرة غنج لحوحة: «كَمْ أونْ، هازم... كم أون».

التفت إلى ساعة التنبيه الموضوعة فوق الكومودينو. كانت الدقائق تثب فوق سطحها بخفة متناهية. تسرب إليه شعور بالاضطراب جعله أكثر عجزاً عن الحركة. لم يبق أمامه إلا ساعة قبل عودة نوال. ولا بد أن عليه إخبار الجارة المتلهفة إلى ظهوره بهذه الحقيقة.

جاءته ثلاث طرقات خافتة على الباب، ومن ورائه تسرب صوتها عذباً:

«هل يمكنني الدخول»؟

«تفضلي»؟

تملكه دوار وهو يراقب انفتاح الباب ببطء. كان الضوء المتسع خلفها يجعله عاجزاً أكثر فأكثر على تمييز ملامحها من موقعه، حيث غطت الستارة الزرقاء نافذة الحجرة تماماً. تفككت الأشياء حوله إلى كسر عائمة في فضاء دوّار. انعكست فوق سطح المرآة الملصقة بواجهة خزانة الملابس شرارة ضوء، للحظة واحدة، مكنته من مشاهدة صورته، لكنها اختفت

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

وحلت محلها صورة جون. أغمض عينيه. غمره صوت المطر الناعم الرتيب القادم من وراء النافذة متناوباً مع أصوات نسائية قادمة من أزمنة أخرى. اكتشف في تلك اللحظة أن أذنيه تمكنتا من الوصول إلى شقق أخرى، مخترقتين قوانين الطبيعة. ها هو يلتقط شهقات الحب واحدة واحدة. وحينما فتح عينيه تفككت صورة لوسي أثناء اقترابها من السرير إلى صور أخرى. إنه الآن محاصر بفتيات المبنى جميعاً.

(3)

لا بد أنه غفا قليلاً. بدت الغرفة هذه المرة أمامه شديدة الترتيب. كان كل شيء في مكانه. ولم يبق أي أثر لجارته، بينما تشبع الهواء برائحة الحبق الأليفة. تلمس استلقاء نوال بجانبه. ومن دون الالتفات إليها رآها تمعن النظر إليه. شعر بالضيق. كان في تلك اللحظات يراها وكأنها معلقة بين السماء والأرض. لكنه بدلاً من مد يده إليها مطمْئناً مضى أكثر فأكثر في إغماض عينيه والتزام الصمت.

برغم تفوقها عليه في كل شيء تفتقد نوال البوصلة التي تحدد بها اتجاهها. وكأن وراء هذه الطاقة روح طفلة تنتظر من يوجهها. ففي كل ما تقوم به من إنجازات باهرة هناك هاجس مقلق يحركها: هل ستحظى بإعجابه؟

«كيف كان العرض اليوم»؟ قالت وهي تداعب صلعته الواسعة. كاد يقول لها: «أي عرض»؟ لكن ذاكرته استرجعت شريط المفاجآت التي ظلت زوجته تُعدّها له.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

قالت نوال: «ابق في الفراش إذا أحببت. أنا سأذهب إلى المدرسة». وقبل أن تنهض من السرير أضافت بنبرة معاتبة: «أنا بدأت أغار من لوسي». قال بدون أن يفتح عينيه: «لكنك هي».

«أنا أعني لوسي الحقيقية».

«هل هناك واحدة حقيقية وأخرى زائفة»؟ تمتم بصوت واطئ.

جاءه صوتها وهي تتطلع في المرآة وتمرر قلم الفحم فوق أهدابها: «هل تعرف إنهما انفصلا»؟

«مَن»؟

«لوسي وجون».

«هل تعنين أنه لن يأتي لزيارتها كل نهاية أسبوع»؟

«العلاقة التي بينهما أعقد مما تتصور».

قالت لحظة مغادرتها غرفة النوم بنبرة حازمة: «لا أظن أن لوسي ستزورك بعد اليوم... إنها حزينة جدا على جون». ومن فوق المرآة التقط حازم مشهداً خاطفاً بعث الاضطراب في أوصاله: كانت نوال تمسح الدموع بخفة عن عينيها.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

تاء التأنيث

منشورات «ألف باء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

(1)

«ماذا كان سيسميك أهلك لو وُلِدتَ بنتاً»؟

سألتُ "مصيب" من دون سابق إنذار، وهذا ما جعل عينيه ترمشان قليلاً وراء نظارتيه السميكتين. ارتسمت على شفتيه ابتسامة معاتبة كأنها تقول لي: «حتى أنت.. ؟ لم أكن أتوقع ذلك منك.. ». لكن الثقة عادت إليه بسرعة، ولا أستبعد أن ذلك راجع إلى ندرة اسمه، فكل المترجمين الآخرين الذين يعملون في مكتبه يحملون أسماء شائعة، ولن يشعر صاحب الوكالة ذو الأصل الهندي بالحرج إذا أخطأ في إطلاق اسم أحدهم على الآخر، إلا مدير مكتب الترجمة العربية "مصيب". ولجعل مهمة لفظ اسمه على لسان غير العرب سهلا بدّل حرف الصاد إلى سين. مع ذلك فهو يغضب حين يناديه أحدنا بمسيب، إذ تحمر أذناه وتظل عيناه مسلطتين على الورقة احتجاجاً على تلك السخرية الخفيفة.

لعل السبب الآخر الذي جعله غير مبال بسؤالي المتخابث هو المسافة الإدارية الشاسعة التي تفصلني عنه، فإذا افترضنا أن مكتب صاحب الشركة "أمريت" مركز الكون فسأكون في هذه الحالة عند حافته بينما سيكون "مصيب" جرماً قريباً منه يدور دون توقف حوله، منه يكسب القوة والدفء ومعنى الحياة. ولهذا السبب كان مدير مكتبنا حريصاً على الحصول (بطرق غامضة) على أجمل صورة فوتوغرافية معبرة لصاحب الوكالة وتكبيرها ثم تعليقها فوق رأسه.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

كذلك، ظلت تلك الدعوات المتكررة لـ "أمريت" له للذهاب إلى مكتبه مثيرة للانتباه، إذ حال اتصال "ماندي"، سكرتيرة صاحب الوكالة، به داعية إياه للقدوم، ينطلق في ترديد المعوذتين، متأتأً بصوت منخفض: «يا ربّ استر.. ». آنذاك يتلبس وجهه قناعاً شاحباً وتتحول شفتاه إلى شريحتي ليمون خاويتين من العصير ترتعشان بانتظام. لكنه حين يعود من مكتب صاحب العمل يبدو شخصاً آخر وكأنه مُنح للتو كنوز النبي سليمان. قد يسأله أحدنا من باب الاطمئنان: «كيف كانت المقابلة»؟ فيجيبه وعيناه مغمورتان بدموع الفرح: «كل شيء تمام. قد لا تصدقون إذا قلت لكم إن حضرته قدّم لي شاياً».

لا أحد يعلم متى التحق "مصيب" بوكالتنا هذه. مع ذلك يجزم بعض العاملين أنه ابتدأ منذ اليوم الأول لافتتاحها، حين أسسها رجل أعمال من أصل صيني، وخلال الثلاثين عاماً من عمرها انتقلت ملكيتها بين عدد من الأثرياء، بعضهم من أصول آسيوية مختلفة، ومع كل صاحب عمل جديد كان "مصيب" حريصاً على تعلم كلمات وجمل من لغة الآخر الأصلية، والحصول (بطريقة غامضة) على صورة فوتوغرافية له، ليكبرها ويعلقها فوق رأسه. بل هو يمضي أبعد من ذلك بقراءة مبادئ الفلسفة أو الديانة التي يؤمن بها صاحب الوكالة، وبفضل ذلك تراكمت لديه معارف واسعة في الهندوسية والبوذية والطاوية، طبقة فوق طبقة حسب خلفية الآخر الثقافية.

وها هو اليوم في عهد "أمريت" اسمعه يردد من وقت إلى آخر مقاطع من كتاب الأوبانيشاد المقدس، وحينما يتحدث عن الوكالة أو صاحبها يستخدم ضمير المتكلم "نحن".

منشورات «ألف باء AlfYaa»

هل هذا التماهي المطلق مع "الزعيم" ناجم عن جينة استثنائية ورثها "مصيب " أباً عن جد أم هو مسعى للتحرر من الشعور بالضآلة عبر الذوبان الكامل برب العمل؟ نوع من النيرفانا عندما تنطفئ الشرارات الصغرى بالنار الكبرى؟ أو لعله رهاب من المجهول المكشر عن أنيابه له في عالم الغيب؟

وكأن هذ الوحش المجهول حل أخيراً، رغم مساعي "مصيب" الدؤوبة لتجنبه طوال سنوات حياته، عبر سلسلة حوادث تشبه في ندرة وقوعها معا الفوز بجائزة اليانصيب الأولى أو سقوط صاعقة على رأس شخص من بين عشرة مليارات إنسان.

ظل مديرنا يتجنب التمتع بعطله السنوية دفعة واحدة. فالانقطاع عن العمل ثلاثة أو أربعة أسابيع يحمل بالنسبة إليه مخاطر فقدان وظيفته. إذ كيف سيكون موقف صاحب الوكالة إذا شعر بأن العمل سائر من دون "مصيب" كما ينبغي؟ لذلك فهو ظل يتمتع بإجازاته على شكل جرعات صغيرة: يومين أو ثلاثة أيام ثم العودة إلى العمل، ليجلس مبتهجا على كرسيه الذي لم يفقد بعد كل حرارة بشرته.

مع ذلك، كان عليه أن يكسر هذه القاعدة الذهبية عند بلوغه خبر احتضار أبيه، فلم تمض على مهاتفة أخيه الأصغر له، أكثر من ثماني ساعات حتى وجد نفسه في مطار هيثرو. وما شجعه على السفر قدوم "أمريت" بنفسه إلى غرفتنا: «آسف على هذه الأخبار»، قال صاحب الوكالة، ثم ربت على كتفه: «سافِر اليوم، ولا تفكر في العمل. نحن ممتنون لجهودك». وهذا ما فعله مديرنا على مضض.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

(2)

بعد مضي سنوات على إغلاق الوكالة النهائي، أدركتُ كم كنا نتبسط في الحديث مع مديرنا الطيب، إلى حد قلب العلاقة بيننا وبينه، فكأن كلا منا كان رئيس القسم و"مصيب" هو المرؤوس الوحيد فينا. مع ذلك، كنا نخضع لإرادته في نهاية المطاف، بفضل سلاح ظل يستخدمه بنجاح ضدنا كي ننجز المهام المنوطة بنا بأسرع وقت: إنه سلاح زرع الشعور بالذنب؛ فمن وراء طاولته الغاصة بالملفات، وعبر زجاج نظارته السميك، كان "مصيب" يتلصص علينا، رغم تظاهره بالانكباب الكلي على عمله. فحالما يجد أحدنا يتململ قليلاً تعبيراً عن ضجره من ترجمة مقالة ثقيلة حتى يقفز من كرسيه صوبه عارضاً عليه المساعدة، وإذا أصر الزميل على إنجاز المهمة وحده، سيرتفع صوت المدير متوسلاً بعبارة ظل يكررها في كل مناسبة: «علينا ألا نعطي انطباعاً سيئاً»، ولن يجد الآخر مناصاً من تقاسم الصفحات معه.

أدركُ الآن كم كنا واقعين تحت تأثير "مصيب"، حتى حين يلتزم الصمت، فكأنه مُنوِّم مغناطيسي لا يكف عن إرسال ذبذبات في الفضاء تجعلنا تحت وطأة هاجس بالتقصير. كأننا كنا في قلعة محاصرة ولن تمضي دقيقة واحدة حتى يطل صاحب الوكالة برأسه ليمسكنا بالجرم المشهود. ولعل غياب مديرنا الطويل منحنا، وللمرة الأولى، شعور بالاسترخاء والاستمتاع بالعمل والمناخ المرح، ولا أستطيع نكران تبادل النوادر حول "مصيب": نحن ما زلنا نشهد إصراره على حمل مظلة كل يوم حتى لو كانت كل نشرات الأنواء الجوية تؤكد سيادة الصحو أسبوعاً بأكمله، أو حضوره اليومي المبكر، حتى

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

قبل فتح الوكالة لأبوابها خوفاً من وقوع عطل ما في قطارات الأنفاق اللندنية.

أخبرني زميل عمِلَ مع "مصيب" منذ البداية في الوكالة، كيف اقترن مديرنا بزوجته الإنجليزية. لقد جاء أولاً من مدينته، مرسلاً من شركة تأمين على الحياة ليحضر دورة تدريبيةً مكثفة نظمتها الشركة الأم في لندن، وفي مبناها تعرف على "مرغريت". وكأن لكلمات الترحيب، التي اعتادت موظفة الاستعلامات ترديدها مع زوار الشركة، فعل السحر عليه.

لا يعرف الزميل تفاصيل كثيرة عن نشوء العلاقة بينهما، لكن ما هو متأكد منه أن نجاح "مصيب" في اختبار الترجمة الذي نظمته وكالتنا الناشئة للتو، شجعه على المضي خطوة أبعد: طلب يد "مرغريت" على الرغم من فارق السن بينهما.

كانت أيامه القليلة تلك في لندن أشبه بالحلم، تجري وفق إيقاع خارج عن إرادته: عمل جديد براتب مغرٍ؛ امرأة ناضجة تفتح له أبواب لندن الغامضة؛ انتقال من الفندق إلى شقتها الصغيرة. ولعله تحت جناحي الحلم الذي كان يعيشه لم يشكل وجود آنّا، ابنة مرغريت، ذات العشر سنوات، معهما رادعاً أمام قراره بالمضي قدماً في قرار زواجه، أو لعله علم أن عمله في وكالة الترجمة مرتبط بحصوله على إقامة دائمة، والأخيرة لا يمكن الحصول عليها من دون اقترانه بامرأة بريطانية.

(3)

حين بلغنا خبر مكوث "مصيب" في قسم العناية المشددة، قابلناه بعدم التصديق، إذ كنا حتى تلك اللحظة على قناعة

منشورات «ألف باء AlfYaa»

بوجوده بعيداً عن مدينتنا بآلاف الأميال. وقبل السماح لنا بزيارته، انتشرت قصص متضاربة في الوكالة عما حدث له يوم وصوله إلى لندن. ولعل هذه القصة التي سمعتها مراراً أقربها إلى الحقيقة:

قبل مغادرته مطار "سين" عائداً إلى لندن، اتصل "مصيب" بزوجته عبر هاتفه الجوال، ففاجأه صمت، مدة ثوانٍ، بدت له أطول من ذلك بكثير، ثم أعقبه صوت امرأة على مسجل: «الجوال الذي هاتفته غير متوفر».

إنها المرة العاشرة التي يحاول فيها التكلم مع مرغريت دون جدوى، إذ حاول خمس مرات أمس وأربع أخرى أول من امس، وفي كل مرة يستقبله صوت جهاز التسجيل بنبرة نسائية محايدة: «الجوال الذي هاتفته غير متوفر».

عند هبوطه في مطار هيثرو فجراً، لم يدر في خلده قط أن لندن هيأت له مفاجأة بغيضة كهذه: انغلاق المترو في وجهه بسبب إضراب عماله. وكأن ذلك أيقظ في نفسه تطيراً باقتراب وقوع الصاعقة التي حاول تجنبها طوال حياته على رأسه. هاتف مرغريت قبل عبوره الباب الدوار إلى الخارج، ومثلما هو الحال في كل محاولاته السابقة كرر صوت المرأة المسجَّل الجملة نفسها: «الجوال الذي هاتفته غير متوفر». انتابه ندم عميق لإنهاء خدمة الخط الأرضي تقليلاً للنفقات كما اقترحت مرغريت.

كان الطريق السريع غاصاً بالعربات مما جعل سيارة التاكسي التي كان يقلها "مصيب" تزحف ببطء قاتل. لا أستبعد أن رغبة القفز منها، والانطلاق ركضاً على قدميه قد راودته

منشورات «ألف باء AlfYaa»

آنذاك، لكن خجلاً من السائق أو تفكيراً بحقيبته الثقيلة (أو معاً) منعاه من التململ، مكتفياً بإطلاق تلك الآهات التي اعتاد إطلاقها في المكتب كلما تباطأ أحدنا في عمله.

استغرقت رحلته إلى البيت أكثر من ساعتين. ولم تصدق عيناه حين اخترقت السيارة أخيراً الشارع الضيق الذي ظلت قدماه تذرعانه كل يوم منذ ربع قرن. تنقلت عيناه بين صفَّي واجهات البيوت الممتدة على جانبيه كقطع الدومينو: كل شيء بقي على حاله كما تركه: الألوان الباهتة نفسها، الغيوم الرمادية الجاثمة فوق أشجار السنديان العارية، النوافذ الواسعة بستائر الساتان نصف الشفافة، والصمت نفسه. في لحظة تجاوزه باب الحديقة الأمامية، خرج جاره من بيته، وعَبْرَ الحاجز الفاصل بينهما، رسم الآخر ابتسامة تشير كأنه رأى "مصيب" قبل ساعات قليلة لا أسابيع ثلاثة.

قبل أن يقرع جرس الباب كانت خطته واضحة: بعد احتضان زوجته والتربيت على رأس كلبهما "فْلاي" سيترك حقيبته في المدخل، ويعود فوراً إلى السيارة التي طلب من سائقها انتظاره، كي يقلّه إلى مبنى الوكالة. لا بد أن "أمريت" يتوقع قدومه اليوم إذ بعث "مصيب" أمس لسكرتيرته رسالة إلكترونية يعلمها فيها التحاقه بالخدمة اليوم.

توقع وهو يقرع الجرس، جواباً فورياً من "فْلاي": نباحاً وعويلاً تعبيراً عن فرحته بعودة صاحبه، لكنه لم يستلم سوى صمت مطبق غريب، حتى بعد تكرار فعله مراراً.

كم مضى عليه واقفاً أمام البيت قبل مد يده في جيبه وإخراج مفتاح الباب الخارجي؟ لعله ظل متردداً في دفعه داخل القفل،

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

فالبيت الذي اشتراه، ووفى عقاره، تشاركه السكن فيه أنّا، وطفلاها وصديقها الجديد أندرو، وهذا ما يجعله حريصاً على عدم خرق خصوصيتهم، على الرغم من أنهم يحتلون الطابق الأعلى في البيت. حتى مع حرص زوجته مرغريت الشديد على إرضائه وجعله يشعر بأنه السيد، كان مصيب (كما سمعتُ) يعيش عزلة عميقة عن الآخرين، ولعل ما يجمعه بساكني بيتهم جميعاً الكلب، الذي تدور معظم أحاديثه معهم عنه. ولا أستبعد أن "فْلاي" يعي حالة سيده، فكثرة ترديد اسمه في قسمنا على لسان "مصيب" تشير إلى مدى التعلق المتبادل بينهما.

انتابه للحظة شعور بأنه أخطأ البيت أو الشارع حين أبى المفتاح الدوران داخل قفل الباب. لعله قام آنذاك بإخراجه وتفريشه مرارا بِكمّ سترته وفي كل مرة كان الفشل نصيبه. لا أستبعد حضور هذا السؤال في ذهنه: هل قررت زوجته طرده من حياتها بعد بقائه بعيدا عنها كل هذه الفترة؟ إذ ليس هناك ما يجمعهما سوى "فْلاي" الذي أصبح بمثابة ابنهما المتبنى بعد فشل زوجته في الحمل. وحتى لو قررت الانفصال أليس له حصة في بيته؟ وهل سيستطيع الكلب تحمل العيش من دونه؟ هو الذي تملأه البهجة كل مساء عند عودة سيده إلى البيت فيمضي طائفاً حوله مسنداً ساقيه الأماميتين على فخذي "مصيب" في وقت تظل عيناه مسلطتين على عينيه، كأنهما تحاولان التعبير عن حب لا حدود له.

لا بد أن السائق قطع تيار هواجسه، ليبرز فجأة واقفاً وراءه: «هل بدلتَ رأيك، وقررت البقاء يا سيدي»؟" وكأنه كان يقول له بشكل آخر: «ادفع لي أجرتي ودعني أذهب».

منشورات «ألف باء AlfYaa»

ما الذي كان يدور في رأس "مصيب" خلال رحلته إلى الوكالة؟ هل تبادل مع السائق شكوى الكثيرين من طقس لندن المتقلب؟ من إضرابات عمال المترو المنتظمة؟ هل شرح للآخر سبب إعادة حقيبة السفر الكبيرة إلى السيارة؟ لا أظن ذلك. فهو شديد الحرص دائماً على إعطاء صورة مزهرة عن حياته الخاصة. كم تباهى بذوق زوجته الرفيع باختيار الأثاث، فهي (كما قال ذات مرة) تُبدل قطع البيت من ستائر وكنبات وأسرّة كل عامين لتتماشى مع الموضة. فسر أحد الزملاء ذلك تعبيراً عن ضجرها، فهي كما ذكر "مصيب" قد تركت عملها بعد زواجهما. وها هو الآن جالس في المقعد الخلفي للسيارة بينما تسكن حقيبته في صندوق السيارة الخلفي، حقيبة واحدة معه، مثلما هو الحال عند قدومه أول مرة إلى لندن قبل ثلاثين سنة!

وقف السائق أخيراً أمام مبنى الوكالة، فانفرجت أسارير "مصيب". راحت عيناه تتطلعان بلهفة وفخر إلى زجاج واجهاته الداكنة العملاقة كأنه مالكه الحقيقي، ففي هذا المكان فقط عاش حياته الحقيقية في لندن، وأي وقت قضاه خارجه كان مجرد حلم يقظة تمسحه أحداث اليوم اللاحق في وكالة الترجمة هذه. من هذه القلعة سيبدأ معركته مع "مرغريت" لاسترجاع بيته منها. كان عليها أن تتفاهم معه بدلاً من تبديل قفل البيت ورميه، دون أي سبب، خارج حياتها. بعد بيته سيسترجع "فْلاي" وصورة "أمريت" التي ظلت زوجته تحتج على تعليقها في غرفة نومهما.

ها هو يقرع جرس الطابق الثالث الذي تحتله وكالتنا. مرة،

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

مـرتين، ثلاثـا، أربـع، خمسـاً.. لا بـد أن موظـف الاسـتقبالات، جيمس، يشـاهد الآن صـورته علـى شاشـة التلفزيـون، يرفـع يده إليه: «مرحبا جيمس أنا "مصيب" أنـا عدت للتو من بلدي»، قـال متضـرعاً، «وأمـس أخبـرت سـكرتيرة السـيد "أمريـت" بالتحاقي اليوم بالعمل. اذهب واسألها إن كنت تشك بكلامـي». وأمـام صـمت المـذياع الصـغير المثبـت علـى حافـة البوابـة الزجاجيـة الخارجيـة، وجـد "مصـيب" نفسـه يضـرب بشـدة علـى الزجاج، لعل أحداً في العمارة ينتبه إليه فيفتح لـه البـاب. توقف بعـض العـابرين وراءه وهـم يراقبـون كهـلاً وسـيماً ببدلـة أنيقـة وحقيبة كبيرة واقفاً أمام صـورته الباهتـة التـي يعكسـها الزجـاج، وعلـى عينيـه ارتسـمت علائـم ذعـر وجـزع، تخـرج مـن فمـه كلمات مفككة: « أرجوك جيمس، افتح لي الباب. سأشرح للسيد "أمريت" سبب تأخري اليوم... أنا دائماً أجـيء إلـى العمـل قبلك أليس كـذلك؟ افـتح ولا تخـف، أنـا متأكـد مـن طيبـة صـاحب شركتنا.. اِفـ.. »

وكأن سلسلة المصائب بحاجـة إلـى ذروة كـي تبدأ بالتلاشـي، ولم تكن تلك الذروة سوى جملـة أطلقهـا أحد السـابلة المتجمعين وراءه: «انظـروا إلـى حقيبتـه... ». ولـم يكـن ذلـك الشـخص بحاجة إلى إعطاء شروحات عما يعنيـه، فلـون بشـرة "مصـيب" كافٍ ليكشف أصله المثير للشبهات.

بدأ الحشد بالتراجع تلقائياً، مما دفع مدير قسمنا بالالتفات لا إرادياً صوبه ورفع الحقيبة بيده اليمنـى استعداداً للمغادرة، ومـا كاد يرمي خطوة إلى أمام حتى ارتفعت صـرخات الـذعر، التـي جـذبت أعـداداً جديـدة مـن المـارة ودفعـت آخـرين منهم للتراجـع

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

وعبور الشارع دون الالتفات إلى السيارات المتحركة ببطء سلحفاتي، حيث حركة المرور تبلغ عادة الذروة آنذاك.

هل جاء زعيق سيارات الشرطة بعد اتصال أحد المارة الفزعين برقم الطوارئ؟ ها هو "مصيب" يواجه ما ظل يخشاه طوال حياته: تحقق ذلك الكابوس الذي ظل يزوره بانتظام؛ إنه يراه الآن أوضح من السابق: رجال شرطة يحاصرونه وفي أيديهم مسدسات وبنادق آلية، ومنهم تنطلق صرخات حادة آمرة إياه برمي الحقيبة جانباً ورفع يديه فوق رأسه .وإذا كان الصحو قد أنقذه من كوابيسه المستنسخة في السابق، فإن الإغماء الناجم عن أزمة قلبية حادة كان المنقذ له هذه المرة.

(4)

كانت الدمدمات التي راحت أذناه تلتقطانها دليلاً على استرجاعه الوعي، ولعل روائح الطعام ومواد التعقيم والتنظيف التي فغمت أنفه جعلته يوقن أنه في مستشفى ما، ورب سؤال حضره في تلك اللحظة: «هل في سجون لندن مستشفيات»؟ فضل إبقاء عينيه مغمضتين، تجنباً لصدمة أخرى، لكن الأصوات بدأت تتضح أكثر فأكثر؛ إنها تتحدث عنه، ومن بينها صوت نسائي أليف على أذنيه لا يكف عن طرح أسئلة تتعلق بصحته: «هل تجاوز مرحلة الخطر، دكتور»؟، وكأنه تحت شعور بالحرج من أن يكون موضع اهتمام الآخرين، فتح عينيه أخيراً.

ها هو يرى، بدلاً من أفراد شرطة يحيطون بسريره،

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

شخصين لم يلتقيا أبداً من قبل. إنهما يتطلعان إليه بحنو، من كرسييهما المقابلين له، ليتعمق في نفسه شعور بأن ما يراه ليس سوى حلم سيختفي حال استيقاظه. همست زوجته بنبرة فرحة متحفظة تجنباً لإزعاج المرضى الآخرين أو ربما تجنباً للظهور بمظهر المبالغ في التعبير عن مشاعره: « أنت بخير، حبيبي، الطبيب أخبرني بكل شيء: لم تكن سوى أزمة قلبية عابرة.. »

قال صاحب الوكالة، "أمريت": «لا أريدك أن تعود إلى العمل قبل استرجاع عافيتك تماما: شهراً، شهرين، ثلاثة، لا يهمّ».

قالت مرغريت: «كنت على بعد 50 ياردة منك حين ركبت التاكسي، وناديتك لكنك لم تسمع.. ذهبتُ إلى الدكان القريب، ولم أعلم أنك آتٍ».

أضاف "أمريت" بنبرة اعتذارية: «وفوق ذلك، أنا أعطيتُ الموظفين في ذلك اليوم عطلة مدفوعة الأجر بسبب الإضراب».

حدثني "مصيب" عند زيارتي له عما جرى حقيقةً؛ وكأنه بذلك أراد أن يفرغ ما في داخله من مشاعر، جراء ارتطام عالمين مختلفين تماما: الواقع كما هو، وصورته الوهمية التي تشكلت في رأسه فقط. لكنه لم ينس تذكيري قبل البوح: «هذا سر بيننا فقط».

قبل وصوله بيوم واحد إلى لندن، أضاعت "مرغريت" حقيبة الكتف الجلدية. كانت جالسة في المترو واضعة إياها على المقعد المجاور لها. وكأن سِنة سرقتها من عالم اليقظة،

منشورات «ألف باء AlfYaa»

وعند إفاقتها بعد دقائق قليلة كانت الحقيبة قد اختفت عن ناظريها.

وشاءت المصادفة أن تضع هاتفها الجوال ومفاتيح البيت في الحقيبة المنحوسة، وأنْ تكون ابنتها وطفلاها وصديقها في رحلة سياحية خارج بريطانيا.

كان عليها أن تذهب إلى مركز الشرطة المحلي لتسجل دعوى ضد مجهول، ومن هناك اتصلت بشركة متخصصة في كسر أقفال الأبواب وتركيب بدائل لها.

مع ذلك، بدا "مصيب" وكأنه قلق على مستقبله في وكالة الترجمة، رغم كل الوعود التي قطعها "أمريت" له. سألني لحظة نهوضي للمغادرة: «هل جلبوا بديلاً عني»؟ وحين طمأنته بأننا عوضنا غيابه دون بديل، ازداد الشحوب على وجهه. ولا أدري ما كان يدور في رأسه حين سألني راجيا: «إذا احتجتُ إلى سكن مؤقت، هل تستطيع استضافتي»؟

منشورات «ألف باء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

النصف الآخر

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

(1)

كان في انتظارهما شغف أزلي متبادل، لو أنهما التقيا في ظروف أخرى، لكنّ لقاءً كهذا بحاجة إلى سلسلة مصادفات تختلف، تماماً، عن تلك التي جمعتهما في ذلك النهار المعتم. عزت إحدى الجرائد المحلية سبب الاصطدام إلى انفجار عجلة في إحدى السيارتين، وكان كافياً لتجنب وقوع الحادث أن يتأخر أحدهما عن الآخر ثانية واحدة. سأطلق عليهما أول حرفين يحضران إلى ذهني: "كاف" و"نون".

لحظة خروجها من البيت دق جرس الهاتف، ولعل الفضول كان وراء تردّدها قليلاً ثم عودتها إلى الداخل لرفع سماعته، إذ من سيقرر في هذا الأحد الثقيل أن يتصل بهم؟ جاءها صوت أم جيمي مشحونا بنبرة رقيقة؛ بعد غد ستقام حفلة عيد ميلاد ابنها السادس، وكم سيكون جميلاً لو يحضر رمزي إليها. أردفت طلبها باعتذار عن تأخر الدعوة. حينما رفعت "نون" رأسها صوب الساعة الجدارية كان العقرب الطويل قد تحرك سبع دقائق. ستتأخر قليلا عن موعدها، وحينما عرض مايكل عليها أن يوصلها إلى الغاليري، أجابت بإصرار يخالف رغبتها الداخلية: «إنها فرصة مناسبة لي للسياقة إلى مركز المدينة». ولا بدّ أنها ستوافق على عرضه لو أنه ألحّ مرة أخرى، لكنه بدلاً عن ذلك أضاف بلهجة محايدة، تخفي ببراعة مخاوفه: حسب آخر نشرة جوية، ستسقط أمطار غزيرة هذا اليوم.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

(2)

لم يكن خروج "كاف" من بيته إلاّ تحت نزوة محضة، إذ حضرت إلى مخيلته صورة سنديانة عارية لكنها مغطاة إلى نصفها بالضباب، ولا بدّ أن استخدامه لفيلم بالأسود والأبيض سيساعده على اقتناص أواخر الشتاء. إذ بعكس الكثيرين، يعشق "كاف" اخضلال الأشياء حوله ورماديتها التي تفتح في داخله تدفقاً، غير قابل للتعريف، لشعور عميق بأواصر حميمة وغامضة بالأشياء.

أغلق الباب وراءه بحذر خوفاً من استيقاظ طفليه، استقبله رذاذ المطر الناعم، فسلّم، وللحظات، وجهه له للوصول بسرعة إلى الغابة، عليه أن يقطع طرقاً جانبية. تردد قليلاً أمام دكان يبيع الصحف والتبغ، لكنه قبل أن يطفئ محرك سيارته غيّر رأيه؛ فهو في كل الأحوال بحاجة لشراء الوقود. هناك محطة بترول على بعد بضعة أميال منه، سيشتري منها أيضاً السجائر وصحف الأحد، ولا بأس أن يتمكن، بعد استيقاظه، من تجنب التدخين ساعة كاملة. غداً سيحاول تمديد الوقت إلى ساعتين، وبعد غد.. عليه أن يكف عن التفكير بالمستقبل وإفساد هذه اللحظة: ها هو يتلمس في أنفاسه ذلك الحنين، لأوقات كان بإمكانه أن يعيشها مع فتيات انجذبن إليه، لكنه بدلاً من المضي معهن خطوة أبعد، انسحب تحت وطأة حوافز غامضة: كأن هناك أنثى مستبدة ظلت تقيم في أعماقه، وتتحكم في قراراته؛ ففي اللحظة التي يجد صورتها متجسدة بكائن حقيقي، تغير هي ملامحها لتجعله يفقد شغفه بمن أحب. مع ذلك، ظلت تلك الإمكانيات المجهضة تستيقظ في نفسه عبر الأحلام، عبر

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

التساؤلات المتواصلة: ماذا سيحل في ذلك الفتى الغرّ لو أنه انجرف مع سين؟ خصوصا أنه كان يضع قدمه، لأول مرة، فوق سطح كوكب مجهول له. أي اكتشافات كانت تنتظره؟ وماذا لو أنه استسلم لصاد؟

لم يكن "كاف" قريبا من إشارة المرور عند تحولها إلى اللون الأحمر، لكن الخروج من دوامة أفكاره، تطلّب ثواني قليلة كانت كافية لتجاوز تقاطع الطرق. فكّر في الوقت الذي كسبه: ربما دقيقتين، وبالغرامة التي قد يدفعها إن وجدت كاميرا فوق إشارة المرور.

(3)

اندفعت "نون" بسيارتها عبر طريق محفوف بأشجار التنّوب والصنوبر، كان رذاذ المطر ينقر الزجاج الأمامي برفق، فتطرده الماسحتان، لحظة حجبه للرؤية. تراءت لها الغيوم أقرب بكثير مما هي عليه. ها هي تضغط على مكبس البنزين أكثر فأكثر فتستجيب حركة السيارة لانفجارات البهجة في روحها. إنها المرة الأولى التي تذهب وحدها إلى مركز المدينة، منذ انتقالها إلى الضواحي مع مايكل. في البدء، كانا ينزلان معا إلى المركز مرة كل أسبوع، لكنهما تدريجياً بدآ يفضلان قضاء عطلة نهاية الأسبوع قريبا من بيتهما. يكرس مايكل نصف نهار السبت لتنظيف سيارته بينما تمضي "نون" وقتها في العناية بحديقة البيت. كان مايكل بعكسها تماماً ، فكل حدث في حياته مخطط له سلفاً. تستطيع الآن، من وراء

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

مقودها، أن تراه جالساً أمام الكومبيوتر يهيئ برنامج عمله للأسبوع المقبل، ولا بدّ أنها لو كانت في البيت لداعبت، كالعادة، شعره، ولا بدّ أنه سيرفع رأسه، ليلقي عليها نظرة مشبعة بالرضا والعرفان بالجميل. لعل غيابها سيجبره على الجلوس مع رمزي وسارة واستثمار الوقت بتحفيظهما نشيداً جديداً.

كم يبدو ارتباطها به خارج سياق مسار حياتها ، إذ لم يأت قدومها إلى لندن، إلاّ عن طريق مصادفة محض. قبل سفرها إلى جنوب إسبانيا، بيومين، زار قريبها المقيم في بريطانيا مسقط رأسه، وكانت مصادفة نادرة أخرى أن تكون "نون"، آنذاك، في نفس المدينة، لزيارة أهلها. في اليوم اللاحق، سافر قريبها معها إلى العاصمة، ليحصل لها على تأشيرة دخول إلى بريطانيا. في طريق عودتها من إسبانيا، هبطت بمطار هيثرو. ولم يتبقّ من إجازتها السنوية سوى سبعة أيام. كانت خطتها أن تقضي خمسة أيام في لندن، واليومين الأخيرين مع أهلها.

(4)

ينتاب "كاف" أحياناً شعور غامض بأن تفاصيل حياته سبق له أن عاشها. على سبيل المثال: لحظة استغراقه في حديث مع صديق، يتغلغل هذا الشعور في كيانه، فيبدأ باستحضار ما سيقوله الآخر. كان التطابق بين ما هو متوقع وما هو متحقق يبعث الرهبة في نفسه، لكنه، في الوقت نفسه، يعمق لديه الشعور بلزوجة الحاضر. المستقبل وحده هو الذي يشدّه؛ الأمل

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ببدء حياة غير مُعاشة من قبل. ولعله لهذا السبب ظل طليقاً في علاقاته النسائية حتى بلوغه الأربعين. يساعده، في ذلك، تمكنه من العيش بمدينة شديدة الاتساع والتعقيد كلندن. لكن حرية هائلة كهذه تحتاج إلى روحية بيولوجي، قادر على عزل نفسه عاطفياً عن كائناته المتخبطة تحت مجهره. كم فوجئ أصدقاؤه حينما أخبرهم عن نيته بالزواج. مع ذلك أخفى "كاف" عنهم قراره بترك اختيار العروس لأهله القاطنين على بعد آلاف الأميال عنه. اعتقد "كاف" انه حقق وفق زواجه التقليدي "انتحاراً حضارياً": اغتيال الماضي والمستقبل، دفعة واحدة، والتشبث الأعمى بالحاضر.

(5)

أوقفت "نون" سيارتها على حافة الشارع. تطلعت في الخريطة التي خطها مايكل لها. كان عليها أن تستدير يميناً عند التقاطع السابق.

قبل ذهابها إلى المطار بدقائق، رن جرس الهاتف في بيت قريبها، الذي كان مستغرقاً مع زوجته في شدّ حقائب "نون"، مما جعلهما عاجزَين عن الوصول إليه في الوقت المناسب، لكن الرنين عاد ثانية لحظة إغلاق الباب الخارجي. قال مايكل أثناء شهر العسل: «لم يكن سهلاً عليّ الاتصال بك في تلك الساعة المبكرة». فسألته مستغربة: «أما كان بإمكانك المجيء مباشرة إلى المطار دون استئذاني»؟ أجابها ضاحكا: «ذلك سيبدو تصرفاً أخرق». في الطريق إلى المطار، قالت

منشورات «ألف باء AlfYaa»

زوجة قريبها مبتهجة: «كنت أعرف أنه غارق في أسركِ، لكن ليس إلى هذه الدرجة».

خلال أيام إجازتها في لندن، تعرفت "نون" إلى جميع أصدقاء قريبها. بعضهم تطوع لمرافقتها إلى المتاحف والمعارض الفنية، ولم يكن مايكل طرفاً في جولاتها بل ظلّ، على الأغلب، يتجنب توجيه الحديث لها عند لقائهما في بيت قريبها، كان حريصاً على الاستفسار عن أحوال الآخرين ونشاطاتهم، كأنه بأسئلته الودية كان يشجعهم على البدء بالتفاخر بإنجازاتهم. ما جذب "نون" إلى مايكل سعيه إلى تغييب أناه بشكل كامل مقابل لعب دور الصدى للآخرين ، ولعل جهود بعضهم في كسب ود "نون"، عبر التحدث عن أنفسهم، دفعتها أكثر للشعور بالتعاطف معه. في المطار بدا لها، وللحظة، كأنه طفلها الذي أضاعته زمناً طويلاً. قالت مازحة: «هل تريد أن نعقد قراننا الآن»؟ وعلى الرغم من عدم تصديقه قال مجاملاً: «أتمنى.. ». أمسكت "نون" بكفه، ثم التفتت إلى مرافقَيها الواقفين على بعد عشرة أمتار عنهما: «لنرجع إلى بيتكما».

(6)

لم يكن الوقت كافياً لإعطاء الإشارة والاستدارة صوب محطة الوقود عند ظهورها إلى شماله، مما دفعه للاستمرار في سياقته. لمح "كاف" شجرة واحدة مفعمة بالزهر الوردي، فخفق قلبه بقوة لذلك التعارض المتجاور: لون الغيوم الكابي ولون الأزهار الصاخب. انتابته رغبة بالتقاط صورة لهذا المشهد،

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

لكن ضيق الرصيف جعل التوقف مستحيلاً في ذلك الطريق المكتظ بالسيارات.

كم أصبح التصوير ضرورياً له، فعبر اللقطة العابرة كان بإمكانه الاقتراب من صور أحلامه المبعثرة، وبفضل مختبره أصبح قادراً على مواصلة حياة سرية أخرى، متجاورة مع حياته العائلية. كان يصل أحياناً إلى نتائج تفوق توقعاته عبر التلاعب بالصور السالبة. لكن الصور ما تلبث أن تفقد بريقها في نفسه، لتدفعه إلى السفر، مرة أخرى، برفقة كاميرته، بحثاً عن وجوه جذابة أخرى.

(7)

تساقط المطر بغزارة فوق الزجاج الأمامي، فراحت الماسحتان تتسابقان، بأقصى سرعة، لدفعه جانباً. انتابها شك بأنها ضلّت طريقها فتسرب إليها شعور بالندم لرفض عرض مايكل بمرافقتها. كانت رغبتها أن تلتقي بصاحب الغاليري لقاء عمل، خارج دائرة الزوج والأطفال. إذ بعد مشاهدته للصور الملتقطة لنماذج من أعمالها، أبدى رغبته بتنظيم معرض لها. ولم يحدث هذا الاتصال إلاّ بفضل جهود أحد زملاء زوجها الذي كان يعرف صاحب الغاليري.

لم تستطع "نون" العودة إلى هوايتها السابقة، إلاّ بعد ذهاب طفليها إلى المدرسة، وحال عودتهما كانت تغلق باب ورشتها وتستسلم لهما كلياً. من وقت إلى آخر، يغمرها، وللحظات، حنين إلى حياتها السابقة: إلى لقاءاتها العاصفة بصديقها الرسام فوق ورق الجرائد، قبل وصول الأصحاب إلى مرسمه. وكم

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

كانت انتقادات الأب والأقارب تدفعها أكثر فأكثر إلى توسيع مساحة حريتها. شيء واحد ظلت عاجزة عن تحمله: عيون زملائها التي كانت تقرأ وراءها ازدراء وعزلاً صامتاً لها. لا بدّ أنهم سيجدونها شخصاً آخر تماماً لو رأوها الآن. قبل عقد قرانها، بيومين اتصلت "نون" بصديقها الرسام لتخبره بقرارها. حبست أنفاسها قليلاً قبل رفع سماعة التلفون. وكم كانت على استعداد، للعودة فوراً إلى بلدها، لو أنه صرخ فيها احتجاجاً، لكنه بدلاً عن ذلك، صمتَ قليلاً، ليبادر بالسؤال: «وعلاقتنا»؟ قالت "نون" مطمْئِنة: «بالتأكيد ستبقى». لكنها لم تلتق به إلاّ بمحض المصادفة، بعد أربعة أعوام. هي مع طفلها؛ وهو مع زوجته وطفلتهما.

(8)

حينما تفكر "نون" بصديقها الرسام تكتشف أنه الوحيد الذي تفاعلت معه أخذاً وعطاءً، على الرغم من شعورها العميق بآنية العلاقة.

قال زوجها بعد انفصال جسديهما العاريين: «أراهن أنك ترغبين بطفل» ثم سحب يدها برقة إلى فمه. وفي حفلة عيد ميلاد ابنهما الأول قالت زوجة قريبها: «رمزي يحتاج إلى أخ»، فأجابها مايكل ضاحكا: «بل أخت». وعند ذهابهما إلى المستشفى لإجراء الفحص، طفح القلق على عينيه الصغيرتين. قالت الطبيبة بعد استفساره المباشر عن جنس الجنين: «على الأكثر بنت»، فانفرجت أساريره، إلاّ أن الشك عاوده: «هل أنتِ متأكدة»؟

منشورات «ألف باء AlfYaa»

خفَّت حدة المطر، لكن عويل الريح المهدد ظلّ يتسرب إلى سمعها، ليدفعها للتشبث أكثر فأكثر بمقود سيارتها. تسرب إليها، وللحظة واحدة، شعور غريب ظلّ يعاودها من وقت إلى آخر. سأطلق عليه الشعور بالانخداع: لعل "نون"، بررت لا شعورياً سلسلة المصادفات التي قادتها للالتقاء بمايكل تبريراً قدرياً، وهذا ما دفعها للإسراع بالارتباط به، لمنح وقوع هذه المصادفات معنى.

اكتشفت بعد مرور عام على زواجها أنها تخلت عن حريتها الناقصة مقابل الوقوع في عبودية الشفقة. مع ذلك، لم تراودها قط فكرة الانفصال: هل ذلك يعود إلى تعلق مايكل الأعمى بها؟ إلى موروثها الشرقي؟ إلى الشعور بالقوة؟ أم هو بكل بساطة استيلاء روح الأم فيها على غيرها؟ قالت لأختها مازحة في زيارتها الأخيرة للأهل: «أنا عندي ثلاثة أطفال». اكتشفت "نون" أنها فقدت حرية أخرى ممنوحة للجميع في بلادها: حرية حركة المشاعر تجاه الآخرين خارج قيود الزمن. كم استغربت من بقائهما في فندق عند زيارة حماتها لأول مرة. قال مايكل مبرراً: «صديق أمي مصاب بالنقرس». وظلت لقاءاتهما بها يحددها عقربا الساعة: في الثالثة ستشرب الشاي مع صديقها، في الخامسة لديها موعد مع الحلاق، وفي العاشرة..

(9)

قرر كل منهما أن يلغي رحلته ويعود إلى بيته: هي مع أحجارها وهو مع كاميرته. وعلى الرغم من عدم معرفتهما

منشورات «ألف باء AlfYaa»

ببعضهما اكتنفهما معاً شعور غامض باقتراب وقوع شيء خارق لكليهما.

فوق أحجارها حفرت "نون" نقوشها، فجعلتها تبدو كأنها لقى منتزعة من حضارات شرقية قديمة. كانت تطل أحياناً، وراء ظلال رسومها عينا رجل غامض.

(10)

توقف الصحفي، في تقريره عن الحادث، عند مصادفة يقلّ احتمال وقوعها، حتى عن الفوز باليانصيب: أن يكون القتيلان مولودين في نفس المدينة، وفي نفس اليوم.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

أرض وسماء

منشورات «ألف باء AlfYaa»

(1)

لا بدّ أن أحداث ذلك النهار ابتدأت هكذا: وسط لجة نوم ثقيل، انبثق صوت ناعم راح يزداد حدة وصخباً ليدفع أحمد إلى حافة الصحو؛ غمره رنين الجرس المتعاقب، حاثاً إياه على ارتداء سرواله وقميصه لا إرادياً، وحينما فتح الباب لم يخب حدسه: كان مراد أمامه، لكن المفاجأة التي شلّت الكلمات في فمه ظهور مليكة معه. كانت تقف على بعد نصف متر وراءه، وكعادتها كانت تشد ذراعيها حول صدرها تعبيراً عن تلك المسافة الفاصلة التي تضعها بينها وبين الآخر.

في الشرفة جلس ثلاثتهم، وعبر حافة الحاجز كان بالإمكان رؤية البحر كشريط أزرق مشوب بخطوط بيضاء. قال مراد: «اتفقنا على الذهاب إلى "شواطئ الأندلس"، رشيد وعميروش في طريقهما إلينا». قالت مليكة، بعد بقائه صامتاً: «أنا متأسفة إذا كان مجيئنا في وقت غير مناسب»، فبادر أحمد بالإنكار: «إنه النوم في وقت متأخر فقط، مع القهوة سأصحو تماما».

لا بدّ أن الوقت لم يتجاوز العاشرة، فالشمس ما زالت وراء البناية الشاهقة التي تضم شقته، مع ذلك كانت ترشّهم بضياء متألق مشبع بالطلّ، يتفكك في الفضاء إلى كريات ملونة تظهر وتختفي أمام أعينهم. اختلس أحمد نظرة إلى مليكة: ما زالت تلك البشرة السمراء، والشفتان الداكنتان

منشورات «ألف باء AlfYaa»

على عهده بهما. كانت دفقات الهواء الصباحية تداعب بلا كلل خصلات شعرها الأسود فتمضي يدها اليمنى بملامسة مقدمة رأسها، من وقت إلى آخر. قال له مراد بعد أن رآها لأول مرة في شقته: «سأنتحر إذا لم أحصل عليها». «وصديقتك لويزا»؟ «خذها أنت فهي معجبة بك». وحينما قرأ فوق عينَي أحمد علامات الغضب، سارع بتبني نبرة المهرج: «بل حتى مليكة ستكسبها بسهولة من بعد.. أعاهدك بأنني سأتركها لك عند انتهاء الصيف».

(2)

كان قد مضى على لقائه الأول بمليكة ما يقرب من شهر واحد لكن بدا له آنذاك أقدم بكثير. استنسخ بعد مرور يوم على ذلك اللقاء، في دفتر يومياته جملة بريتون الشهيرة: «الحب الحقيقي يعيد لكافة الأشياء ما فقدته من ألوان زمن الشموس الغابرة». منذ قدومه إلى وهران وهو يعيش حالة انقسام الذات: نصف رافض للانغمار بعلاقات نسائية عابرة أدخله مراد إليها، ونصف مسحور بها، ففي هذه المدينة، كل شيء يمكن أن يقع بعد لحظة اللقاء: أن تطلب الفتاة مرافقتك إلى بيتك، أو أن تتخلى عنك وسط الطريق عند وقوع عينيها على صديق قديم. هنا، الجرأة الجارحة تندفع صوب الخارج للقبض على ما يشبع الرغبة. بعكس ما هي الحال عليه في مدينته؛ هناك تتدخل التقاليد حتى في اختيار لون القميص، وكل رغبات الفرد تتلبس أقنعة متداخلة تجعلها عسيرة على التحديد. كل ذلك جعل أحمد يعيش وضعاً مربكاً: ففي لحظة انغماره

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

بعالم الملامسة الشفيف، تحت دفع نصفه الأرضي يرفع نصفه السماوي (أو بالأحرى نصفه العقائدي) سوطه احتجاجاً، لكن هذا التصادم الداخلي اختفى تماماً، حينما ظهرت مليكة أمامه؛ بدلاً من ذلك اجتاح كيانه توق غير قابل للتعريف، جعل الأشياء حوله تبدو، وللمرة الأولى في حياته، متحررة من جاذبيتها الأرضية، لكأن نصفه الأرضي استسلم كلياً لنصفه السماوي.

(3)

كاد أحمد أن يعتذر عن الخروج معهم، عند وصول رشيد وعميروش، لكن إلحاح الأخيرَيْن أشعره بالحرج، خاف من تسرب شعور بالشفقة عليه في نفسيهما، إن هما عزوَا رفضه إلى موقف مليكة منه. فعلى الرغم من مشاعر الانقباض والوحشة التي ما انفكت تختلط بأنفاسه، ظل أحمد يمثل دور الشخص المرح الذي لم يخسر سوى لعبة شطرنج عابرة.

تحركت سيارة عميروش البيضاء، ببطء، على شارع جبهة البحر المزدحم بالعربات والعابرين. جلس رشيد في المقدمة، واحتل مؤخرة البيجو العتيقة العشاق الثلاثة. إلى جوار أحمد لاح البحر البعيد، وسط فراغات أعمدة الحاجز الحديدية، خطوطاً زرقاء وبيضاء، يقاطعه صف أشجار نخيل الزينة الممتد على الرصيف المتلوي. كم بدا العالم مقفراً له آنذاك، على الرغم من مهرجان ألوان الطبيعة الصاخبة حوله.

ما أن وصلوا "المرسى الكبير" حتى أصبح المرور أكثر

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

خفة، اندفعت السيارة دون تعثر، على طريق يطل مباشرة على البحر. فتح عميروش المسجل، فانطلقت قصيدة أراغون بصوت ليو فيري، من منتصفها: «إنها لمعجزة أن نكون معاً.. أن يكون الضوء على وجنتيك.. أن تلعب الريح حولكِ.. دائما أختضنّ حين أراكِ.. مثلما كنتُ في موعدنا الأول.. ». لمح أحمد ابتسامة تواطؤ تقفز فوق وجهَيْ جاريه، ولأول مرة مدّ مراد، أمامه، يده ليشابك بأصابعه أصابع مليكة، لكنها سحبت يدها خجلاً، وفوق وجنتيها سكنت حمرة خفيفة.

(4)

بعد تعرفه على مراد، فتحت المدينة الموحشة أبوابها له؛ انطلاقاً من بيته، كان مراد يقوده مشياً صوب أسرارها؛ إلى تلك الشقق الفرنسية الطراز؛ إلى تلك المقاهي الشعبية الغارقة بالدخان والضجيج؛ إلى غرف الفتيات في الحي الجامعي؛ إلى تلك الشواطئ الغارقة بعزلتها، وفي شقته كان مراد يقاسمه الملابس والطعام والنقود. فيه وجد أحمد نقيضه الذي لا يتحرك وفق مبدأ أخلاقي ما بل وفق مبدأي الرغبة والنزق الشديد، تسيّره طاقة حسية هائلة لا تعرف الكلل. فجأة كشف له ذلك المهرج، الذي ظل طوع إرادته منذ تعرفه عليه، وجهاً آخر: بدلاً من الانغمار في الغناء أو الحديث عن طفولته أو ترديد قصائد لرامبو وبودلير، اعتكف مراد في زاويته ساهماً، وحينما ألحّ عليه عميروش بمشاركتهم الجلسة اكتفى بترديد أغنية الشيخ العفريت الفولكلورية: «شعرها لون الغراب، وعيونها خطفوا لي قلبي.. ». كان أداؤه في تلك المرة شديد العذوبة،

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

شجياً، وحميمياً. قال رشيد ساخراً: «المخادع غارق في العشق»! وحينما حضرت مليكة مرة أخرى، تلبست وجه مراد سحنة أخرى، لم ير مثيلاً لها من قبل، فلأول مرة اعتصم بصمت تأمليّ يجعل الآخر مجبراً، وبشكل لاشعوري، على الانجرار نحو الثرثرة، لكأن مراد آنذاك تقمص صورة أحمد، في وقت راح المضيف يقلد لا إرادياً، مراد، تحت وطأة سلطة عيني مراد الغائبتين. لا بدّ أن مشاعر مليكة انحرفت، في إحدى تلك اللحظات، من المشرقي الذي لا تكاد تفهم لهجته إلى ابن بلدها المثير للفضول. لكن هذه الصورة تبدلت قليلاً عند حضور رشيد وعميروش وآخرين. فتَحْتَ إلحاحهم وافق مراد على قراءة قصيدة من ديوان "عيون إلزا": «إنها لمعجزة أن نكون معاً.. »، وعند وصوله إلى سطر: «أنا وُلدت حقا من شفتيك»، ألقى أوّلاً بنظرة قصيرة مقتضبة، على مليكة، بعد تجاهل طويل لها، متنقلاً بين عينيها وشفتيها الخمريتين.

(5)

فتح الشاطئ الفسيح ذراعيه لهم، على الرغم من غضب البحر الذي راحت موجاته تندلق بتهور، فوق الرمل، وفي سمت السماء استقرت الشمس بلا حراك. كانت المظلات تمتد بلا كلل فوق الشاطئ، يعلوها سراب شفاف، يتمايل وفق حركة الهواء، ممتزجاً بالضحكات وأغاني المسجلات وصراخ الأطفال.

اندفع رشيد وعميروش إلى البحر ثم تبعهما أحمد، لكنه

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

انحرف إلى اليسار قليلاً، مختفياً وسط عدد من السابحين المجهولين. غاص تحت السطح حتى ملأ طعم الملح فمه، بدا له قاع البحر متألقاً بانكسارات ضوء الشمس الصاخب الذي تحول تحت عينيه إلى شبكة ضوئية مفروشة فوق القاع، وحينما أخرج رأسه كان بإمكانه مشاهدة مليكة ومراد، الجالسين تحت المظلة، جسماً متداخلاً واحداً، تحت تأثير قطرات الماء التي غطت قرنيتي عينيه.

بعد اختفاء مراد المفاجئ لأكثر من أسبوع، ظهر أمامه ثانية، برفقة مليكة. كان الوقت عصراً، ولم يمض على عودته من العمل أكثر من نصف ساعة. بدا مراد له ساهماً وضجراً في آن، لكن ما جعل أنفاسه تضيق في صدره، انجذاب مليكة لمراد، الذي ظهر أمامه لأول عنيفاً وعسيراً على التصديق. ذكّره منظرها بشغف لويزا المتحررة بمراد. كانت الأخيرة عند حضورها معه تجلس، دون أي حرج، فوق فخذه أمام أصدقائه. لكن هذا الشغف الذليل لم يخلق في نفسه شعوراً بالشفقة أو الازدراء تجاه مليكة مثلما هو الحال مع لويزا، بل شعوراً تراجيدياً بالانشداد الذليل لها، وسعياً دؤوباً لإرضائها عبر إرضاء صديقهما المشترك مراد. دعاهما للذهاب إلى مطعم فرنسي، للاحتفال ببدء علاقتهما، وفي الطريق عطف على دكان زهور، اشترى لهما باقة من أزهار عبّاد الشمس، وحينما وضع البائع الباقة بين يدي مليكة انتزع أحمد لا إرادياً وردة بيضاء كبيرة ليقدمها إلى مراد. قال ضاحكاً: «أرجو أن تحتفظ بها معك دائماً». قبل أن يصلا إلى المطعم بأمتار قليلة، ظهرت أمامهم لويزا برفقة فتاتين، توقفت مذهولة لرؤية صديقها المختفي عنها، لكن مراد تجاهلها،

منشورات «ألف باء AlfYaa»

مواصلاً إيقاع مشيته مع مليكة، وهذا ما دفع أحمد للبقاء قليلاً معها، مخففاً عنها، عبر ثرثرته، آثار الصدمة.

(6)

أعلنت مليكة عن رغبتها بالذهاب، لكنها استدركت بالفرنسية، بعد حلول الصمت بينهم: «سآخذ الحافلة، هناك واحدة كل ساعة». قال أحمد: «لا بدّ أن البحر الهائج أتعبكِ»، فأجابت بصوت حازم: «عندي امتحان بعد غد». قال مراد: «سأوصلكِ إلى موقف الحافلات».

تأجج طرف البحر البعيد بغلالة بيضاء، وراح الزبد الأبيض يتبعثر تحت أقدامهم، ومن ورائهم تصاعد هدير البحر حدة، تقاطعه صرخات الفتيات المرحة لحظة قذف الموج لهنّ نحو الشاطئ. مالت الشمس قليلاً صوب الغرب فتسربت أشعتها تحت المظلة دافعة برشيد وعميروش للابتعاد يميناً عنها والاحتماء بظلها. رماهما مراد بحفنة من رمل. صاح بغضب تمثيلي: « انهضوا أيها الكسالى».

استرجع مراد طبيعته، بعد ذهاب مليكة. خلع عنه فردتي حذائه وجوربيه وثيابه مكتفياً بمايوه قصير. قال رشيد ساخراً: «من يراك يظنك بطل سباحة عالمي». قال عميروش مسانداً: «كان علينا أن نجلب لك جاكيتة فلين». أضاف أحمد: «في مدينتي يشدون كرب النخل على ظهور الأطفال». علق رشيد: «كان عليك أن تجلب واحدة لمراد معك». وفي طريقهم إلى البحر، سأل عميروش أحمد: «هل أخبرك مراد بحصوله على عمل في العاصمة»؟

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

(7)

حل الغروب أخيراً، جالباً معه صفير الخطاطيف الصاخب، هدأ البحر قليلاً فما عاد صخب موجاته يصلهم إلا كزفير عميق تنبثّ أصداؤه فوق الهضاب البعيدة.

ذهب رشيد وعميروش إلى المقهى ليجلبا شراباً. قال أحمد لمراد بعد أن وصل الماء إلى رقبتيهما: «لا تبتعد أكثر». ثم اندفع سابحاً على صدره أولاً، ليغوص عميقاً، هرباً من مراد الذي بدا له، في حركاته الخرقاء وسط الماء، طفلاً يبعث على الشفقة. استسلم لأذرع البحر التي دفعته بحنو إلى السطح. شدته حركة البحر الخفاقة في صعودها وهبوطها الرتيب، فراح يقلد بجسده وتنفسه إيقاعها. انتابه إحساس عميق بأنه يعيش لحظة حلم خارج المكان والزمان، أمامه انتشرت تلك الشاليهات البيضاء التي بدت له أشرعة بيضاء، وفوق رأسه اكتست السماء زرقة عميقة موشحة بلون أرجواني. هل كانت لحظة إغفاءة تلك التي جعلته يشاهد مليكة تعوم لأول مرة أمامه بمايوه أسود يناسب لون بشرتها القمحي الغامق، وحينما راحت تتلاشى وسط لجة المياه اللازوردية غاص وراءها تحت إغراء مسك شريط طويل تركته مشدوداً إلى شعرها الأسود.

اخترق الماء الأجاج رئتيه فأعاده إلى الصحو. من بعيد بدا له مراد ظلاً متفككاً تحت عينيه المشبعتين بالماء. جاءه صوته خفيضاً كالهمس: «سأسبح هذه المسافة الفاصلة بيننا، وسأناديك إذا تعبت..»، وقبل أن يتيح لأحمد الوقت كي يردعه، ضرب مراد الماء بكفه الأيمن مقلداً حركات السباحين المحترفين.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

في أي لحظة هجم الخوف على مراد؟ كان الشاطئ شبه مهجور آنذاك، والعتمة ما انفكت تتسرب بين ثنايا النهار. حاول أحمد أن يدفع بجسده صوب صديقه، لكن خدراً غريباً تسرب إلى ساقيه جعله عاجزاً عن الحركة. ها هو مراد يلوح أمامه كبجعة ترفع جناحيها الطويلين لحظة سقوطها وسط رمال متحركة، حاول مرة أخرى دفع جسده إلى الأمام لكن ذراعيه رفضتا التحرك، ارتفع صوته مطمْئناً: «لا تخف أنا قادم.. ». رفس الماء بقوة بباطني قدميه محرضاً عضلاته على لحركة، ففاجأه رفض شديد منهما لمواصلة الضرب، كأن جسده أصبح ملكاً لشخص غريب غامض تقمصه في تلك اللحظة. ها هو يتابع، عن بعد ثلاثة أقدام، "مراد" وهو يتشبث بالهواء، حيث راحت ذراعاه تتحركان دون طائل في شتى الاتجاهات، يستمع إلى طرطشة الماء المتوغل في فمه وحنجرته وأنفه، تقاطعها بين ثانية وأخرى، تمتمة استغاثة، سعلة مختنقة، خربشة أصابع متهالكة لسطح البحر المتموج...

شيئاً فشيئاً، خفتت حركة صديقه وراح صوت الماء يتلاشى. بدا له المشهد كابوساً أكثر من كونه واقعاً، وكل ما كان عليه هو الاستيقاظ منه. ها هو أخيراً يتحرر من حالة الشلل الكامل، يمرق جسده بقوة صوب مراد. يمسك ذراعيه ويسحبه إليه، يبدو له وكأن كل شيء على ما يرام، حتى مع انقطاع هسيس أنفاسه، حتى مع تيبس ذراعيه. وعند احتضان جسده وتماس رأسيهما واجهته عينا مراد الجامدتان بقسوة لم يرها فيه من قبل؛ كأنهما كانتا محملتين بشيء يصعب تعريفه: فزع متكلس وعلامة استفهام، سيظلان مرافقين إياه كالوخز طوال حياته.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

ملاذ خاص جدا

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

تمتد الخضرة، في ويلز، على امتداد البصر، متوزعة في كثافتها دون اتساق فوق تلك المستطيلات المنفصلة عن بعضها ، بخطوط مستقيمة، متكونة من أشجار شوكية، وأينما يلتفت المرء، سيواجهه المشهد نفسه، سواء كان هضبة أو وادياً، أرضاً فسيحة أو وعرة. تعود هذه الخضرة الدائمة إلى خصوبة الأرض، وغزارة المطر، الذي يهبط غالباً على هيئة رذاذ ناعم، دؤوب، ذي نفس طويل، يجعل أيام الصحو هناك، أعياداً غير معلنة. وكم يصبح مغرياً، لبعض المقيمين في مدن تغص بسكانها، كلندن، الهروب إلى قرى نائية صغيرة كتلك الموجودة في ويلز، أثناء العطل القصيرة؛ الانتقال المتطرف من مدينة يزيد عدد سكانها عن الاثني عشر مليون نسمة إلى منطقة سكنية يُعد قاطنيها على أصابع اليدين.

كان الفندق الذي سكنتُ فيه منتجعاً خيالياً، محاطا بأشجار الأرز والزيزفون من كل جانب، ولا يزيد زواره عن عشرة. على مسافة قصيرة منه، تقع قرية متكونة من أربعة بيوت، تفصل بعضها عن بعض مسافات خضراء شاسعة. في تلك البقعة المعزولة كنت أتشافى من ضغط مجاميع الناس الهائلة التي ظللتُ أرتطم بها دون توقف في لندن: في المترو، في الأسواق، على الأرصفة، وعبر طوابير السيارات اللامتناهية المندفعة في كل الاتجاهات... مقابل ذلك، ظل السؤال التالي، يتردد في نفسي، بعد مكوثي أربعة أيام في ذلك الفندق: كيف يمكن العيش في منطقة كهذه؟

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

لا أستطيع اعتبار تعرفي على النادلة جوديث مفتاحا للإجابة على هذا السؤال بقدر ما هو إغراء آخر بإثارة أسئلة أخرى، إذ لم يكن في مظهرها ما يثير الاستغراب، عدا تلك الحماسة الكبيرة في التعامل مع الآخرين، ممزوجة بروح مرحة تتجاوز قليلاً الحدود المتعارف عليها في المجتمع البريطاني، لكنها في الكثير من المجتمعات ستكون محببة للآخرين لما تمتلكه من عفوية وسرعة بديهة مع ذلك، فهي، وبلا شك، تمتلك تلك الصفة المشتركة للكثير من سكان هذا البلد الأصليين، وأعني بها اعتدال المزاج وتوازن الشخصية أمام الآخرين. رغماً عن ذلك، فإنه لم يمض على العائلة التي تشاركني الطاولة وقت الإفطار، أكثر من يومين كي ينعت الزوج، وبطريقة لطيفة، جوديث بغريبة الأطوار.

هل كان سبب هذه التسمية يعود إلى اهتمام جوديث المبالغ به بكلب صاحب المنتجع؟ فقلما كانت لا تتحدث معه، بحمية لا تقل عن حميتها في التحدث مع زبائن الفندق. والغريب أن ذلك الكلب كان يقضي الساعات مستلقياً، في حال شبه غيبوبة، عند إحدى زوايا حجرة الطعام، أو خلف مكتب الانتظار، لكن ما إن تقترب جوديث صباحاً من باب البناية الخارجية، حتى تدبّ في أوصاله الحياة ثانية، فيبدأ بإطلاق أصوات متقطعة متلهفة، إعلاناً عن غبطته. ستُمضي جوديث آنذاك وقتاً لتهدئته، بالتربيت على رأسه، ومداعبته، وتبادل الحديث معه.

أضاف جاري بيتر، بأن ويلز فردوس غريبي الأطوار الأثرياء في بريطانيا، إذ أن قلة عدد التجمعات السكنية، واتساع المسافات الفاصلة بين البيوت، يساعدهم على ممارسة

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

هواياتهم، دون تطفل الآخرين أو انزعاجهم، وهذه الهوايات بالنسبة لغريبي الأطوار أقرب إلى طقوس قسرية يمارسها كل منهم. قالت زوجته فرانسيس، بعد انقضاء أيام إقامتنا في الفندق، وبعد أن جمعتها علاقة ودية بالنادلة الظريفة: «ما رأيكما بزيارة بيت جوديث؟ لقد دعتنا إلى جلسة شاي وكيك غداً عصراً.»

كان يوماً حافلاً بنثيث المطر الناعم، الدؤوب. ودعوة من جوديث وأمها، لزيارتهما، قد جاءت إنقاذاً لنا نحن الثلاثة، فما كان ممكناً القيام بأي مشروع آخر، سوى البقاء في الفندق وتمضية الوقت بالقراءة. هل هو الإحساس بأننا ندخل مملكة الغرابة قد جعلنا ننساق إلى داخل بيت جوديث في حالة ذهول ممتعة؟ أم هو ذلك المشهد المحيط بنا، حينما توقفت سيارة الزوجين بيتر وفرانسيس أمام باب الحديقة الأمامية، حيث شملنا سكون العزلة المطلق، وسكون الأشجار والمروج حولنا؟ أم هو لون السماء المتشحة بالغيم الكثيف الرمادي، متضاداً مع تلك الخضرة المتشربة بضباب شفيف. وقد يكون لكل هذه العناصر دور في تدفق الشعور الحميم تجاه جوديث وعالمها الغريب.

عند مدخل الحديقة، رحبّت جوديث وأمها بنا ترحيباً كبيراً، وراحتا تقوداننا إلى بيتهما بحمية كبيرة، تحوطنا من كل جانب عدة كلاب. كان المطبخ أول مكان للاستقبال. صدمتني رائحة ثقيلة جاثمة في الهواء، وأنا أتطلع إلى مئات الأشياء المعلقة على الجدران، بعضها حدائد ومعدنيات يزيد عمرها عن القرن، وبعضها الآخر أوعية وقدور بحجوم مختلفة. جعلني

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

العدد الهائل من لوازم المطبخ، وللحظة، أظن أنني في مدرسة ذات قسم داخلي، وحينما سألت، لمن كل هذه اللوازم، جاءني صوت أم جوديث، جوانا، مليئاً بالرقة والمرح، «إنها لصغارنا»، ولم أحتج إلى وقت طويل لرؤية الصغار، إذ أطلت بعض القطط الخجولة برؤوسها من حافة الباب الجانبية، مستغربة وجودنا.

كانت غرفة الضيوف المعتمة، متحفاً للأثاث البائد: أرائك ذبلت أزهار نسيجها منذ زمن بعيد، خزانات خشبية للتُّحف، قد نصلت ألوانها منها، وتحولت إلى رماد عتيق، قطع معدنية من كل العصور، تستقر في تلك الحجرة، نهائياً، بعد أن دارت بين أيدي أناس مجهولين كثيرين. لكن كل ذلك لم يثر شيئاً في نفسي، كانت عيناي مثبتتين على الكراسي والأرائك ، هناك، استلقت عشرات الحيوانات البيتية، نصف نائمة: كلاب من فصائل عديدة، وبحجوم مختلفة، قطط بألوان متنوعة. أكثر ما أثار انتباهي، ذلك الكلب الذي يمسك بين أسنانه دمية، حينما راح يلقي بنظرات حزينة علينا. قالت جوانا، «إنها جسيكا»، ثم مضت أم جوديث تحكي لنا عن تاريخ هذه الكلبة الحزين، إذ أنها عرفت طفولة قاسية مع أصحابها السابقين، «كانوا يتركونها وحدها في البيت لمدة بضعة أيام، بل هم يصرخون في وجهها، وليس مستبعداً أنهم كانوا يضربونها من حين إلى آخر». سألتهما، «كيف تم إنقاذها؟»، اندفعت جوديث آنذاك لتروي بحماسة كيف أنها قرأت إعلاناً في الجريدة المحلية عن أفراد عائلة يبحثون عن شخص يرغب في تبني كلبتهم قبل رحيلهم إلى أستراليا. عادت جوانا لاستلام خيط القصة، «أتذكر كيف أن الأشهر الأولى كانت عسيرة على جسيكا كي تتخلص من عقدة خوفها من الأغراب».

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

مع الشاي والكعك، أصبحت القطط والكلاب أكثر حيوية، فراحت تتنقل بيننا ، جعلتني أزدرد قطع الكعك بصعوبة، وحينما سألتني أم جوديث إن كنت أحب قطعة أخرى، وجدتني أعتذر بخجل عن قبول "البودنغ"، خاصة حينما شاهدت "مستر بيبز" يمد ببوزه إلى الصحن دون تلكؤ.

ينتمي "مستر بيبز" إلى فصيلة "اللابدوك" الناعمة، ولم يكن مظهره يشير إلى شيخوخته، إذ تم الاحتفال بعيد ميلاده الثامن عشر قبل أسبوع، وفي تلك المناسبة حضرت صاحبته السابقة التي تمتعت بوجوده معها حينما كان صغيراً، ثم قامت بنبذه حينما فقد حيويته. كان على وشك أن يُحقن بمصل قاتل في عيادة الطبيب البيطري، «لولا وصولي آنذاك لمعالجة قطتي لوسي»، قالت جوديث وهي تضم «مستر بيبز» إلى صدرها.

من أحاديث الأم وابنتها، كان ممكناً تقصي سيرة كل حيوان موجود في بيتهما. «هل لكل كائن في هذا الجيش الجرّار اسم شخصي؟». «بالطبع...كذلك علينا أن نكون جد دقيقات في اختيار الأسماء، بحيث تكون مختلفة عن بعضها في النطق»، ولتوضيح الفكرة، راحت جوديث تطلق أسماء مختلفة، ليرفع بعد كل صيحة حيوان رأسه من فراشه الوثير.

من أين تأتي الحيوانات المنبوذة إلى هذا البيت؟ لا بدّ أن لعلاقات جوديث الوثيقة بمحل بيع الحيوانات المنزلية، الواقع في القرية التي تزورها كل أسبوع للتبضع، دوراً مهماً في التقاط تلك الحيوانات المريضة أو المسنّة، والتي لا يجد مالكوها خياراً آخر سوى التخلص منها، آنذاك، يصبح لجويدث وأمها دور في إنقاذها من براثن الموت، ثم القيام بالعناية بها،

منشورات «ألف باء AlfYaa»

حتى آخر لحظة من حياتها. تحكي الأم بألم عن موت الكلب توني في الأسبوع السابق، إذ بعد أن أصبح عاجزاً عن الحركة أشهراً، وبعد فشل كل محاولات علاجه، اضطرت هي وابنتها أن تسلماه إلى الطبيب البيطري لقتله بإبرة سم. قالت جوديث، إنها تشعر بالذنب لعدم السماح له بالنوم معها في أيامه الأخيرة، وتفضيلها للكلب الضخم كارل. «لكنه كان مريضا جداً، أليس كذلك؟» سألت جوديث أمها، فهزت جوانا برأسها مؤيدة.

من حديثهما المتداخل مع بعضه، علمتُ أن الأب قد مات قبل أشهر قليلة، لكن غيابه بدا شيئاً مريحاً لهما، إذ جعلهما تمارسان هوايتهما المشتركة بحرية، ودون اعتراضات منه. إنهما الآن ممتلئتان بشعور فيّاض بأهمية القضية التي تكرسان لها كل جهودهما، وإن ما تقومان به من إنقاذ وإعالة الكثير من الحيوانات المنبوذة قد منح لحياتهما معنى، إضافة إلى توسيع علاقتهما بالآخرين: أصحاب الحيوانات السابقة، الطبيب البيطري، صاحب الحيوانات المنزلية...وكأنهما، بالرغم من العزلة الشديدة التي تحيط بهما، أوجدا حياة غاصة بالحركة والأحداث: بعد أسبوع سيكون عيد ميلاد "جسيكا" السابع عشر، بعد أسبوعين سيأخذان "مستر بيبز" إلى الطبيب، بعد شهر...

في الحديقة الخلفية، شاهدنا بيت جوديث الإضافي، وهو عبارة عن عربة(كرافان)، تنام فيها برفقة حيواناتها الأثيرة. كان الببغاء "رام" أقرب مخلوق إليها، لكن بموته في السنة الماضية، احتل الكلب "كارل" الأصم موقع الببغاء. كانت

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الحديقة موقعاً لكل تلك الكائنات التي تفضل البقاء خارج البيت: ثلاث وزات بيضاء، سلحفاة شابة تبلغ من العمر الخامسة والتسعين. أرنب خجول لم يشأ الظهور أمام الزوار.

قالت جوديث بعد أن ودعتنا: «هل تعلمون أنني أشاهد كل يوما نفس الحلم: مئات الحيوانات التي عاشت وماتت هنا، أراها واقفة حول سريري وفي فم كل منها عظْمة. ماذا ترمز العِظام في الأحلام؟».

منشورات «ألف باء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

صدر للمؤلف

1. **"العبور إلى الضفة الأخرى"** (قصص)، عام 1992، عن دار الجندي، دمشق ـ سوريا. صدرت النسخة الرقمية عن "ألف ياء alfyaa.net" 2025
2. **"أحلام الفيديو"** (قصص)، عام 1996، عن دار الجندي، دمشق ـ سوريا. صدرت النسخة الرقمية عن "ألف ياء alfyaa.net" 2025
3. **"رمية زهر"** (قصص)، عام 1999، عن دار المدى، دمشق ـ سوريا. صدرت النسخة الرقمية عن "ألف ياء alfyaa.net" 2025
4. **"خيانة الوصايا"** (ترجمة)، دراسات نقدية لميلان كونديرا، عام 2000، عن دار نينوى، دمشق ـ سوريا
5. **"مفكرة بغداد: يوميات العودة إلى مسقط الرأس"** (كتاب يوميات) ، عام 2004، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ـ لبنان
6. **"كوميديا الحب الإلهي"** (رواية)، عام 2008، عن دار المدى، دمشق - سوريا. صدرت النسخة الرقمية عن "ألف ياء alfyaa.net" 2025
7. **"لعبة الأقنعة"** (قصص)، عام 2008، عن دار دلمون الجديدة، دمشق - سوريا. صدرت النسخة الرقمية عن "ألف ياء alfyaa.net" 2025
8. **"حين تغيرنا عتبات البيوت"** (مقالات)، عام 2021، عن دار دلمون الجديدة، دمشق ـ سوريا
9. **"جاذبية الصفر WEIGHTLESSNESS"** (رواية)، عام 2023، عن دار دلمون الجديدة، دمشق ـ سوريا. صدرت النسخة الرقمية عن "ألف ياء alfyaa.net" 2025.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

لؤي عبد الإله

- كاتب عراقي وُلد في 2 كانون الثاني 1949 في بغداد. قضى سنوات دراسته الابتدائية والإعدادية متنقلاً مع أسرته بين قضاء الحويجة في محافظة كركوك، ومنطقتي أبو غريب والزعفرانية الأولى الزراعيتين، وذلك بسبب تنقل والده عبدالاله أحمد محمد الذي كان يعمل موظفاً في وزارة الزراعة.
- أهم هذه المحطات كانت تلك التي قضاها في الزعفرانية الأولى، على أطراف بغداد، وهي منطقة تقع على ضفاف نهر دجلة وتحيط بها من كل جانب بساتين النخل والحمضيات. وفي ثانوية جسر ديالى أنهى دراسته الثانوية، وكان الوصول إليها يتطلب ركوب الباص من وسط بغداد إلى منطقة المدائن.
- وقد تشكلت له خلال سنته الإعدادية مجموعة صداقات قائمة على القراءة في مختلف المجالات، وتبادل الكتب والمقالات، وكان للأستاذ الراحل محمود الريفي دور كبير في توجيهه نحو الأدب والفلسفة خلال عامَي 1964-1965.
- بعد أن أنهى دراسته الجامعية وحصوله على بكالوريوس في الرياضيات من كلية العلوم / جامعة بغداد، خدم لعامٍ واحد في الجيش، ثم عُيّن مدرساً للرياضيات في ثانوية العطيفية حتى عام 1976، حيث سافر ضمن بعثة تعليمية

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

عراقية إلى الجزائر، وكان من المقرر أن يعود إلى العراق في عام 1980 بعد انتهاء إعارته، لكنه قرر البقاء في الجزائر والعمل بموجب عقد شخصي كمدرس للرياضيات في معهد للمعلمين بمدينة وهران.

- نشر أول قصة قصيرة له في مجلة **الآداب اللبنانية** عام 1983 تحمل عنوان" **طيور السنونو**."
- انتقل **لؤي عبد الإله** إلى لندن عام 1985، حيث عمل في عدة مجالات منها التعليم والترجمة.
- ظل **لؤي عبد الإله** منذ وصوله إلى لندن عام 1985 يعمل في مجالَي الترجمة وتدريس الرياضيات أولاً في معاهد مسائية مختلفة، ثم بدأ قبل حوالي عشرين سنة بتدريس اللغة العربية لغير الناطقين بها في معهد **سواس** و**جامعة ويستمنستر** وجامعة **أغا خان**.
- منذ أواخر الثمانينيات وحتى الآن، نُشرت له مقالات أدبية وفكرية وقصص قصيرة في عدد من الصحف العربية مثل "**الحياة**"، و"**الشرق الأوسط**"، و"**العرب**"، و"**القدس العربي**"، كما نُشرت أعماله في مجلات أدبية متعددة مثل "**الآداب**" "اللبنانية، و"**الكرمل**"، و"**الناقد**" "التي كان يصدرها رياض الريس في لندن.

.10

منشورات «ألف ياء AlfYaa»